

الفصل الثاني

مظاهر تقدم العلوم الأساسية في مدينة غزة

أولاً: علوم القرآن الكريم

* علم القراءات

* علم التفسير

ثانياً: علم الحديث

ثالثاً: علم الفقه وأصوله

رابعاً: التصوف

خامسًا: علم الكلام

الفرق والمذاهب المخالفة لمذهب أهل السنة

مظاهر تقدم العلوم الأساسية في مدينة "غزة"

أقام الإسلام دولة عظيمة مترامية الأطراف ضمت أمماً وشعوباً مختلفة، واقتضت سياسته الراشدة إنشاء المدن وتعمير البلدان وتنظيم شئون المال من زكاة وخراج، ثم اقتضت طبيعة الحياة نفسها وتكاليف الشريعة أموراً كتوقيت الشهور وقسمة المورايت وغيرها، هذا كله تطلب إنشاء فروع من العلوم لم يكن لهم بها عهدٌ، فنشأت علوم دينية كالفقه والتفسير، وعلوم لغوية كالنحو والصرف والبلاغة، وعلوم تطبيقية كالطب والفلك والهندسة.

وإذا كانت هناك أحاديث كثيرة وردت في فضل العلم على وجه العموم، فالعلم الديني علي وجه الخصوص وردت فيه أحاديث عديدة أيضاً، ومنها عن "أبي هريرة" رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده" رواه مسلم وأبو داود وغيرهما^١.

كما حرص العلماء علي صرف همم طلاب العلم إلى دراسة علوم القرآن والسنة، فالعلم بهما هو العلم الحق، يقول "ابن القيم":

^١ - أي العلوم الدينية: وهي تلك العلوم التي يرجع الأصل فيها إلي الشرعيات من الكتاب والسنة، والتي هي مشروعة لنا من الله ورسوله، وما يستتبعها من علوم لازمة لتأمام الإفادة منها. محمد عادل عبدالعزيز: الحضارة الإسلامية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، القاهرة، دار غريب، ٢٠٠٠م، ص ١٥٨.

^٢ - عبد الحليم محمود: موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة، ص ١٠٧.

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة هم أولو العرفان^١

وهناك أبيات منسوبة للإمام الشافعي، وهى تحض على دراسة القرآن الكريم والحديث وهما رمزا العلوم الدينية:

كل العلوم سوي القرآن مشغلة إلا الحديث وإلا الفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذلك وسواس الشياطين^٢

وليس معني ذلك أنهم حينما ميزوا العلوم الدينية وجعلوها هى الأولى بالدراسة أن اهتموا العلوم الأخرى . والتي كان الدافع الحقيقي وراء الاشتغال بها هو رغبة العالم في استجلاء أسرار خلق الله ومعرفة قدرة الله وعظمته، فكل علم يجب أن يكون علي صلة بالدين، ويكون في خدمته وتابعاً له . إنما أرادوا من ذلك أن ينوهوا بالعلوم التى يستطيع أن يلم بها الخاصة والعامة، والتى ينبغى أن تكون هى الثقافة العامة التى يتداولها الناس .

كان هناك سبب آخر وراء الاهتمام بالعلوم الدينية هو أن الاشتغال بها في تلك الفترة كان من أكبر العوامل لتهيئة المعاش لصاحبها، فالعالم كان بإمكانه أن يصل بمعرفة العلوم القرآنية والفقه والحديث إلى أعلى المناصب كالقضاء والوعظ والتدريس، وكان بوسعه أيضاً أن يتقرب إلي السلاطين والأمراء ويكون موضعاً لاحترام الجميع .

من هذا المنطلق كان سلاطين مدينة "غزة" يولون العلوم الدينية معظم اهتمامهم فأصبحت "غزة" في عهدهم منارة للعلم يقصدها كل طالب علم، وقد استمر هذا النشاط العلمي فترة طويلة، وكان فيها العلم أوثق ما يكون اتصالاً بالدين^٣، فالسلطان

^١ - أبو عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان: آداب طالب العلم، القاهرة، دار العلوم الإسلامية، ١٩٨٨ م، ص ٦٦.

^٢ - جورج المقدسى: نشأة الكليات، ص ٣٤٣

^٣ - Hillen Brand: Madrasahs Islamic Period, p1٦٦.

*أما في عصرنا الحالى فقد تم فصل الدين والعلم فصلاً تاماً بدعوى عدم التجانس بينهما، فأقيمت جامعات خاصة للعلم يدرس بها الدين، وتم فصل الثقافة الإسلامية من مجتمع العلم والعلماء،

"محمود" (٤٢١: ٣٨٨ هـ / ١٠٣٠: ٩٩٨ م) اهتم بتشجيع العلوم الدينية^١، وكان هو نفسه مولعًا بعلم الحديث فالتف حوله كثير من علماء الدين وتنافس أهل المذاهب الدينية والفقهية في كسب تأييده لاعتقادهم أنه إذا اعتنق مذهبًا ساد في الأقاليم الواسعة التي فتحها^٢. كذلك السلطان مجد الدولة عبد الرشيد (٤٤١: ٤٤٤ هـ / ١٠٤٩: ١٠٥٢ م) والذي كان من السلاطين ذوي الثقافة الدينية الواسعة، فكان يسمع ويروى الحديث^٣.

تشتمل العلوم الأساسية على عدة علوم هي علوم القرآن الكريم (علم القراءات وعلم التفسير) وعلم الحديث والفقه والتصوف.... فهي كثيرة ومتنوعة، ولكن من يريد أن يحصرها ويقلل عددها يجعل منها ثلاثة هي التفسير والحديث والفقه، وهذه العلوم الثلاثة توجد في ظلها علوم أخرى، فالفقه يستتبع أصول الفقه والحديث يستتبع مصطلح الحديث^٤.

أولاً: علوم القرآن الكريم

ظل القرآن الكريم منبع لكثير من العلوم التي انشغل بها المسلمون في تلك الفترة، فاستعان به علماء اللغة والنحو على استنباط قواعد اللغة العربية، واستعانوا بالفرق الإسلامية المختلفة بكتاب الله واتخذوه أساساً للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه، وعلماء الفلك والهندسة وعلوم أخرى مختلفة، لذلك نجده يؤثر تأثيراً كبيراً في الثقافة العربية والإسلامية، فهو المنبع الذي نهل العلماء المسلمون منه معارفهم، وهو المحور الذي تدور

وأصبحت الثقافة الدينية معزولة تمامًا ولا يعرفها أو يدرسها إلا فئة قليلة من الناس الذين يريدونها لذاتها، وبذلك تم استقطاب أبناء الأمة الإسلامية في الأنواع الأخرى من التعليم وتم إبعادهم عن دراسة ثقافتهم الدينية.

^١ - ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٢٨١. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ١٣٢.

^٢ - محمد جمال الدين سرور: انقسام الدولة الإسلامية إلى دول مستقلة بالشرق، ص ٣٦.

^٣ - استاد خليلي: المرجع نفسه، ٢٤٠.

^٤ - عبد الستار أبو غدة: رب زدني علماً، ص ٤٦.

عليه العلوم الدينية والأدبية واللسانية والتطبيقية^١، وذلك بفضل إعجازه وتفوقه البياني، والذي شغل المفكرون المسلمون ببلاغته وبيانه، فاهتموا بأسراره البلاغية وتعمقوا بتفسير آياته وتأويلها واستنباط الأحكام منها، فظهر بذلك عدة علوم متعلقة بالقرآن الكريم، ومن أهمها علم القراءات وعلم التفسير.

* علم القراءات

علم القراءات من أول العلوم التي اهتم بها المسلمون، فهو المرحلة الأولى لتفسير القرآن الكريم^٢، وهو العلم الذي يبحث عن صور نظم كلام الله تعالى وكيفية قراءة ألفاظه حفاظاً له من التحريف والتغير^٣.

ويرجع السبب في ظهوره إلى خاصية الخط العربي الذي يجعل الكلمة الواحدة تقرأ بأشكال مختلفة تبعاً للنقط الموجودة فوق الحروف أو تحتها^٤، بالإضافة إلى تباين لهجات العرب والمسلمين من الشعوب المفتوحة، فأوجد ذلك اختلافاً في نطق حروف القرآن، لذلك أتفق بعد البحث والاستقصاء علي قراءات معينة، وقصد من تنوعها التسهيل^٥، غير أنهم اختلفوا في عدد القراءات المعتمدة، فبعضهم جعلها سبع قراءات وبعضهم جعلها أكثر، غير أن الراجح هو سبع قراءات^٦.

^١ - ابن خلدون: المقدمة، ج ٣، ص ٩٣١.

^٢ - حسنى الخربوطلى: الحضارة العربية الإسلامية، ص ٣٦٥. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه والجزء، ص ٢٥٣.

^٣ - طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة، ج ١، ص ٣٤٧.

^٤ - محمد الحسينى عبد العزيز: الحياة العلمية في الدولة الإسلامية، الكويت، ١٩٧٣ م، ص ٦٨. ناجي معروف: تاريخ الحضارة العربية، ط ٣، بغداد، ١٩٥٢ م، ص ٢٠٥.

^٥ - عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط ٤، القاهرة، ١٩٧٨ م، ص ١٦٩. عصام الدين الفقى: معالم التاريخ الإسلامى، القاهرة، (د.ت)، ص ٣٨٢.

^٦ - ابن خلدون: المقدمة، ج ٣، ص ٩٣٣.

نسبت كل طريقة من هذه الطرق إلي من اشتهر بروايتها من بين الرواة الكثيرين، وهم: "نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم" (ت ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م) من أهل "المدينة"، و"عبد الله بن كثير بن عمرو بن عبد الله بن زاذان بن فيروز بن هرمز" (ت ١٢٠ هـ / ٧٣٧ م) من أهل "مكة"، "أبو عمران عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة" (ت ١١٨ هـ / ٧٣٦ م) من أهل الشام، و"أبو عمرو زيان بن العلاء بن عمار" (ت ١٥٤ هـ / ٧٧٠ م أو ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م) من أهل البصرة، و"أبو عمارة حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الزيات الكوفي" (ت ١٥٤ هـ / ٧٧٠ م أو ١٥٨ هـ / ٧٧٤ م) و"أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الكوفي الكسائي" (ت ١٨٩ هـ / ٨٠٤ م) و"عاصم بن أبي النجود" (ت ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م أو ١٢٨ هـ / ٧٤٥ م) من أهل الكوفة، وأضيفت ثلاث قراءات لكل من "حفص" وأبي جعفر" و"يعقوب"، فصارت القراءات عشر^١.

هذه القراءات العشر كلها جائزة عند المسلمين، وعند الأئمة أن الجميع على صواب، فقد يختار الإقليم الواحد قراءة واحدة أو قرائتين أو أكثر حسب ما يلائم طباع أهله^٢، وبذلك أصبحت تلك القراءات علمًا مدونًا توضع فيه المصنفات التي ربما صاحبها الرسم لأوضاع الحروف واعتبرت المعرفة بها فرضًا، كذلك تناول علماء كثيرون في جميع أرجاء البلاد الإسلامية هذه القراءات بالشرح وإبراز قواعدها وأحكامها^٣. وللمقرئ صفات يجب أن يتحلى بها ومنها: أن يكون حرًا عاقلًا مسلمًا ثقة مأمونًا ضابطًا، وأن يكون ملهمًا بعدة علوم منها: الفقه والأصول والنحو والصرف والتفسير^٤.

^١ - محمد عادل عبد العزيز: الحضارة الإسلامية، ص ٥٩. طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة، ج ١، ص ٣٦٦: ٣٨١.

^٢ - جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٣، ط ٢، بيروت، دار الجليل، ١٩٩٤ م، ص ٦٦٧.

^٣ - عبد المنعم ماجد: المرجع نفسه، ص ١٦٩، ١٧٠.

^٤ - ابن الجزري: منجد المقرئين ومرشد الطالبين، القاهرة، مكتبة القدس، ١٩٣١ م، ص ٦: ٤.

قراء مدينة "غزة":

حفلت مدينة غزة بكوكبة من العلماء في علم القراءات من بينهم:

"أبو عبيد الله محمد بن آدم الغزنوي المقرئ" المعروف "باللهأوري"، كان شيخ متقن في القراءة اتسم بالورع والتدين والمداومة علي العبادة والمواظبة علي التهجد، ذهب إلى مدينة "قزوين"، ونزل في خانقاه "جوهر خاتون"، واشتغل بالتدريس في "المدرسة العنبرية" إلى أن توفي سنة (٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م)^١، قرأ على "عمر بن زكريا السرخسي"، وروى عنه القراءة "محمد بن عبد الرحمن بن أبي المعالي"^٢.

"أبو عبد الله محمد بن طيفور السجائوندي الغزنوي" (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م) مقرئ ومفسر ونحوي، له تفسير حسن، وكتاب "علل القراءات" في عدة مجلدات، وكتاب "الوقف والابتداء" في مجلد كبير، وله كتاب "عين المعاني في تفسير السبع المثاني"^٣.

"أبو الفضل محمد بن يوسف بن علي بن محمد الغزنوي" (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م) مقرئ ومحدث وفقه، تفقه علي "عبد الغفور بن لقمان الكردي"، وقرأ عليه "الواقعات" حدث بالقاهرة وسمع من "أبي الكرم الشهرزوري"، وقرأ القراءات علي "أبي أحمد سبط الخياط" قرأ عليه بطرق المنهج السخاوي^٥. وتصدر للإقراء، ومن قرأ عليه الإمامين "علم الدين السخاوي" و"جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب"، ومن أخذ عنه "ابن خليل" و"ضياء الدين المقدسي" و"الرشيد العطار"^٦.

^١ - القزويني: التدوين في ذكر أهل العلم بقزوين، ج ١، ص ١٣١.

^٢ - ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢، ص ٤٣. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ١٤٧.

^٣ - الذهبي: طبقات القراء، تحقيق أحمد خان، ج ٢، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٩٧ م، ص ٨٣٧. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٢٥٣.

^٤ - القرشي: الجواهر المضيئة، ج ٣، ص ٤١١. ابن الجزري: المصدر نفسه والجزء، ص ٢٨٦.

^٥ - ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٤٣. الذهبي: العبر، ج ٣، ص ١٢٧.

^٦ - الذهبي: طبقات القراء، ج ٢، ص ٨٩٦، ٨٩٧.

ومن علماء "غزة" المتصدرين في القراءات "عثمان بن علي الغزنوي المعروف بالغالب"، وهو مقرئ متصدر، قرأ علي "عبد الكافي"، وقرأ عليه "عمر بن زكريا السرخسي"^١.

ومن علماء القراءات الوافدين علي "غزة" الإمام "أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الخبازي" (ت ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م)، درس القراءات علي يد والده "أبي الحسن المعروف بالخبازي الكبير"، وعلي "أبي بكر بن محمد الطرازي"، وتصدي للإقراء، وصنف العديد من الكتب في القراءات، وتخرج علي يديه عدد كبير من المقرئين بلغوا الآلاف "بنيسابور" و"غزة"^٢. "أبو علي الحسين بن أبي الفضل الشرمقاني" (ت ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م) من العلماء المتميزين في علم القراءات ووجوهها، ذهب إلي "غزة" في أيام السلطان "محمود الغزنوي"، وكان يكرمه غاية الإكرام، قرأ علي "أبي الحسيني الحمامي" وأبي الحسن بن العلاف" و"عمر بن إبراهيم الكتاني" و"طالب بن عثمان النحوي" و"عبيد الله بن أحمد الصيدلاني" و"إبراهيم بن أحمد الطبري" و"أبي بكر محمد بن عبد الله الأصبهاني"، وقرأ عليه "أبو طاهر بن سوار" و"أبو منصور علي بن محمد الأنباري"، وتخرج علي يده الألوف من "غزة" حتي صار من كبار مشايخها^٣.

الإمام "أبو بكر محمد بن أحمد بن الهيثم البلخي المقرئ" (ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م) قرأ بالروايات علي "أبي علي الأهوازي"، استوطن "غزة"، وقرأ بها القراءات، وكان بصيراً بالعلل، عالي الرواية، وله كتاب "جامع القراءات" جمع فيه القراءات العشر وغيرها، وأتى فيه بالكثير من الفوائد بالأسانيد المختلفة^٤.

^١ - ابن الجزري: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٠٨.

^٢ - الذهبي: معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار، تحقيق محمد جاد الحق، ج ١، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٩٧ م، ص ٣٣٢.

^٣ - ابن الجزري: المصدر نفسه والجزء، ص ٢٢٧.

^٤ - الذهبي: معرفة القراء، ج ١، ص ٣٦٠. طبقات القراء، ج ٢، ص ٦٧٩.

الحكيم الإمام "أبو الحسن الإبريقي" كان إمام الجامع القديم بنيسابور، كان حافظاً للقرآن الكريم عالماً بوجوه قراءته، حمل ابنه محمد ومحمود وتوجه إلى غزة، جعله السلطان إبراهيم (٤٥١: ٤٩٢ هـ/ ١٠٥٩: ١٠٩٨ م) في سلك القراء، فكان يحضر كل يوم إلى دار السلطنة لقراءة القرآن وظل على هذا الحال حتى توفي^١.

ومن كبار العلماء المتصدرين من خارج "غزة" منصور بن محمد بن العباس أبو نصر الهروي، وهو مقرئ متصدر نزل "غزة" قرأ علي "أبي الحسن علي بن محمد بن الخبازي"، وقرأ عليه الأستاذ "أبو بكر محمد بن أحمد بن الهيثم الروذباري" نزيل "غزة"^٢.

و"عز الدين محمد بن عبد الرحمن بن أبي المعالي بن الراوي"، روي القراءات عن محمد بن آدم الغزنوي، وروى عنه القراءات عرضاً "محمد بن مسعود القزويني"^٣. فضلاً عن "أبو حفص عمر بن زكريا السرخسي" مقرئ متصدر ناقل، قرأ علي "عثمان بن علي التغلبي"، وقرأ عليه "محمد بن آدم الغزنوي"^٤.

✽ علم التفسير

التفسير لغة الإيضاح والتبيين، واصطلاحاً هو علم يبحث عن معنى نظم القرآن بحسب الطاقة البشرية وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية^٥، والغرض منه معرفة معاني النظم، وفائدته حصول القدرة علي استنباط الأحكام الشرعية، وموضوعه كلام الله الذي هو منبع كل حكمه ومعدن كل فضيلة، وغايته التوصل إلى فهم معاني القرآن واستنباط

^١ - البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام، ص ١٣٨.

^٢ - ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢، ص ٣١٣.

^٣ - المصدر السابق والجزء، ص ١٦٨.

^٤ - المصدر السابق، ج ١، ص ٥٩٢.

^٥ - طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة، ج ١، ص ٣٩٨.

حكمه^١. وهو يعتبر من أشرف العلوم على الإطلاق، وأولاها بالتفضيل على الاستحقاق وأرفعها قدرا بالاتفاق^٢.

أما فضل التفسير فهو عظيم، وحاجة الناس إليه شديدة، فالوصول إلى السعادة الدنيوية والأخروية لا تتأتى إلا بالاسترشاد بالقرآن الكريم، والعمل بتعاليمه وهديه ونظمه الحكيمة، والعمل بهذه التعاليم والإفادة منها لا يتأتى إلا بعد فهم القرآن وتدبره، والتفسير هو الذى يتأتى به الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن الكريم^٣.

اشترط العلماء في مفسر القرآن الكريم شروطاً لا تتوافر إلا عند أعظم العلماء، فقد اشترطوا أن يكون المفسر حسن المعرفة بقواعد اللغة العربية وأصولها، ومتعمقاً في مفرداتها ومعاني ألفاظها، وله دراية بأسباب نزول الآيات وظروفها، وأن يكون عليماً بالشريعة الإسلامية مطلعاً على أحكامها، ملماً بما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم من تفسير لآيات القرآن الكريم^٤.

وقد اتجه المفسرون اتجاhein في تفسير القرآن الكريم، الاتجاه الأول: التفسير النقلي أو المأثور، وهو بيان معنى القرآن الكريم بما جاء في القرآن نفسه، وبما جاء في السنة الصحيحة، وبما نقل عن الصحابة وعن التابعين^٥.

^١ - حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، بغداد، ١٩٨٢م، ص ٤٢٧. محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، ج ١، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦١م، ص ٢٠.

^٢ الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير، راجعه يوسف الغوشى، ج ١، ط ٢، بيروت، دار المعرفة، ١٩٩٦م، ص ١٣.

^٣ - أبو زيد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى، ط ٣، القاهرة، مطبعة الاستقلال الكبرى، ١٩٦٤م، ص ٢٠٠.

^٤ - رحيم كاظم، عواطف محمد: الحضارة العربية الإسلامية، ص ٢٠٦.

^٥ - ابن خلدون: المقدمة، ج ٣، ص ٩٣٥. محمد أبو النور الحديدي صقر: التفسير بالمأثور ومناهج المفسرين فيه، مكة المكرمة، سلسلة بحوث المركز العالمى للتعليم الإسلامى، ١٩٨٣م، ص ٢٩.

أما الاتجاه الثاني: فهو التفسير بالرأى، وهو عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته لألفاظ العربية ووجوه دلالتها، ويعتمد المفسر في تفسير الرأى على العقل أكثر من اعتماده على النقل، وذلك لأن القرآن هو دستور المسلمين في دينهم وديناهم، وكلما تطورت الحياة الاجتماعية والاقتصادية رجعوا إليه ليروا فيه حلاً لما يستجد من الأمور والمشاكل، وكلما تطورت الحياة العقلية نظر العلماء إلى القرآن من وجهة نظر جديدة، وقرأوا فيه معانى لم تخطر على بال من سبقهم، وقد أصبح تفسير القرآن فى أى عصر من العصور يحمل طابع الحياة العقلية والاجتماعية والدينية لذلك العصر، لأن المفسر عادة يساير أفكار الناس ويقصد إلى حل مشاكلهم، ويشرح لهم ألفاظ القرآن الكريم بالطرق المألوفة لديهم والأساليب المعروفة عندهم^١.

أما الأدوات التي يحتاج إليها المفسر من العلوم التي اعتبرها العلماء أدوات لفهم كتاب الله فهي علم اللغة وعلم النحو وعلم الصرف وعلوم البلاغة (المعاني . البيان . البديع) وعلم القراءات وعلم أصول الدين وعلم أصول الفقه وعلم أسباب النزول وعلم القصص^٢.

أما بالنسبة للفرق الإسلامية المختلفة كالمعتزلة والصوفية والشيعة، فقد لجأ علماء تلك الفرق إلى تفسير القرآن بما يؤيد مذاهبهم وآرائهم، فتفاسير المعتزلة تتسم بتحكيم العقل في الاستدلال وقلة اعتمادها على التفسير بالمأثور، كما كانوا يلجأون إلى التأويل إذا اعترضتهم من الآيات القرآنية ما يخالف مبدأ نفي الصفات عندهم. ويغلب على تفاسير الصوفية طابع الغموض والمصطلحات الخاصة والمعاني التي لا يفهمها إلا المطلع على آداب الصوفية الخبير بطرقهم في التفكير وأساليبهم في الكلام، فقد كان لهم آراء في فهم القرآن تختلف كثيراً أو قليلاً عن الآراء الشائعة بين عامة العلماء، وعرف عنهم ما يعرف بالتفسير

^١ - رحيم كاظم، عواطف محمد: المرجع نفسه، ص ٢٠٧.

^٢ - محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، ج ١، ص ٢٦٦: ٢٦٨.

الإشاري، وهو تأويل آيات القرآن الكريم علي خلاف ما يظهر منها بمقتضي إشارات حقيقية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة^١.

الخلاصة أن المؤلفات في مجال التفسير اصطغت بتوجيه المفسر الفكري، فالمفسر الصوفي يميل إلى التفسير الإشاري، واللغوي يميل إلى التفسير اللغوي، والذي يهتم بمجال العقائد يقدم تفسيره في ضوء معتقداته، والتفسير متي كان بعيداً عن الجهالة والضلالة مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه كان تفسيراً محموداً، وما غير ذلك فيعتبر مذموماً^٢.

أشهر مفسري مدينة "غزة":

يأتى في مقدمتهم "أبو عبد الرحمن محمد بن حسين السلمى" (ت ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م) أصله من نيسابور، من كبار علماء التفسير في مدينة غزة، له مؤلفات عديدة في التفسير منها كتاب "الحقائق في التفسير"^٣.

"أبو بكر أحمد بن إسماعيل بن عيسى الغزنوي" أحد أئمة "غزة" في التفسير، سافر إلى خراسان والحجاز والعراق، وقابل "أبا القاسم القشيري"، وسمع منه ومن "الحاكم أحمد بن عبد الرحيم السراج"، وخرّج لنفسه أربعين حديثاً، وحظى بشهرة واسعة "بغزة"، عاش بعد العشرين وخمسة^٤.

"غالي بن إبراهيم ناصر الدين" الملقب "بتاج الشريعة ونظام الإسلام الغزنوي"، أقام "بحلب" ودرس بها فقه المذهب الحنفي، وهو إمام في التفسير والفقه والأصول والجدل،

^١ - رحيم كاظم، عواطف محمد: المرجع نفسه، ص ٢٠٨.

^٢ - أبو زيد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٠٩.

^٣ - استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٣٤٩.

^٤ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٦، ص ١٩٢. الداودي: طبقات المفسرين، تحقيق على محمد عمر، ج ١، بيروت، دار الكتب العلمية، (د. ت)، ص ٣٢.

له تفسير للقرآن في مجلدين ضخمين، سماه "تفسير التفسير"، وله في الفقه كتاب "المشارع في الفقه"، وكتاب "المنافع في شرح المشاريع"، توفي سنة (٥٨٢هـ / ١١٨٦م)^١.

"محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري الغزنوي"، لقب بـ "بيان الحق"، كان عالماً مفسراً لغوياً فقيهاً، له تصانيف حسنة منها كتاب "جمل الغرائب في تفسير الحديث" و "إيجاز البيان في معاني القرآن"^٢.

ومن أجل المفسرين الذين زاروا مدينة "غزة":

"أبو بكر محمد بن الفضل البلخي" يعرف "بميرك البلخي الرواس" المفسر المعروف، روي عن "أحمد بن محمد بن نافع" و "محمد بن علي بن عنبسة" وصحب "أحمد بن خضرويه البلخي"، روي عنه "علي بن محمد بن حيدر"، وأجاز "لأبي بكر المقرئ" وصنف "التفسير الكبير"، وله كتاب "الاعتقاد" شرح فيه مذهب أهل السنة، ورد فيه علي المعتزلة، ألفه للسلطان "محمود الغزنوي"، توفي سنة (٤١٥هـ / ١٠٢٤م) أو (٤١٦هـ / ١٠٢٥م)^٣.

و "أبو الحسن علي بن أبي الطيب عبد الله بن أحمد النيسابوري" (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م)، كان له معرفة عالية بالقرآن وتفسيره، وله عدة مصنفات في تفسير القرآن منها كتاب "التفسير الكبير" في ثلاثين مجلد، وكتاب "التفسير الأوسط" في أحد عشر مجلد، وكتاب "التفسير الصغير" في ثلاثة مجلدات^٤، وكان يملئ ذلك من حفظه، مُهل إلى السلطان "محمود الغزنوي" لسمع وعظه سنة (٤١٤هـ / ١٠٢٣م)، فلما دخل جلس بلا إذن، وأخذ في رواية الحديث قبل أن يأمر له السلطان بذلك، فغضب لذلك السلطان "محمود"،

^١ - ابن قطلوبغا: تاج التراجم في طبقات الحنفية، ص ٤٩. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ١٦، ص ٣٢٧.

^٢ - ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ١٩، ص ١٢٤.

^٣ - الداودي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٤، ٢٢٥.

^٤ - ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٧٣: ٢٧٥.

وعندما عرف بعد ذلك منزلته في الدين والعلم اعتذر له وأمر له بهال فرفضه الشيخ اعتزازاً منه بكرامته^١.

"أبو الحسن على بن فضال بن على بن غالب المجاشعي القيرواني المعروف بالفرزدقي"، له رحلات عدة، زار من خلالها مدينة "غزة" وألف بها كتباً بأسماء أكابرها، وأقرأ الآداب بها، وانتشر صيته فيها، وكان له باع في التفسير، ومن أهم كتبه في التفسير كتاب "الإكسير في علم التفسير" في خمسة وثلاثين مجلداً، و"البرهان في التفسير" في عشرين مجلداً، وله أيضاً "البسمة وشرحها" في مجلد واحد، توفي سنة (٤٧٨هـ / ١٠٨٥م)^٢.

^١ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ١٧٣، ١٧٤.

^٢ - ياقوت الحموي: معجم الأدياء، ج ١٤، ص ٩٠، ٩١. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٢، ص ٢٧١. سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ٥٢٨.

ثانيًا: علم الحديث^١

١- انقسم هذا العلم إلى فرعين: الأول علم الحديث "رواية" وهو علم يختص بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وأفعاله وتقريراته وصفاته الخلقية وضبطها وتحريرها*، والثاني علم حديث "دراية" وهو علم يتناول حقيقة الرواية وشروطها وأنواعها وأحكامها وأقوال الرواة وشروطها وأصناف المرويات وما يتعلق بها، وفي عبارة موجزة: هو علم بقوانين ما يعرف به أحوال السند والمتن، وقد يتفرع عن هذين العلمين عدة علوم وهذه العلوم هي: علم مصطلح الحديث وعلم علل الحديث وعلم رجال الحديث وعلم الجرح والتعديل.

علم مصطلح الحديث: هو العلم الذي يبحث في أنواع الأخبار والروايات الواردة وأحكامها وشروطها لتمييز الصحيح فيقبل والغير صحيح فيرد، ويتناول كذلك سماع الحديث وطرق ضبطه وأدائه. وعلم علل الحديث "الحديث المعلل": هو الحديث الذي ظاهرة السلامة اطلع فيه بعد البحث قادح، أى أن هذا العلم يبحث في علة السند أو المتن عند ثقات المحدثين، الذين يرون حديثًا ظاهرة السلامة لجمعه شروط الصحة من حديث الظاهر، إلا أنه قد تظهر فيه علة ناشئة عن وهم أو إلتباس في الضبط، وهذا العلم من العلوم الدقيقة التي تحتاج إلى اطلاع واسع على جميع علوم الحديث وما يتعلق بها، ولا يقوم به إلا من رزقه الله فهمًا ناقدًا وحفظًا واسعًا ومعرفة تامة بمراتب الرواة وملكة قوية بالأسانيد والمتون.

علم رجال الحديث: يتناول البحث عن رواة الأحاديث من جهات متعددة بهدف الكشف عن كل راوٍ، واستبانة حاله أمام العلماء من حيث قبول روايته أو ردها ودرجته ورتبته عن المحدثين، ودوره في تحمل الحديث وأدائه، ولقد تشعب هذا العلم حتى ألف فيه العلماء كتبًا مستقلة في فروع فوضعوا مصنفات في أسماء الرواة وكناهم وألقابهم وأنسابهم وفي معرفة مواليدهم ووفياتهم والبلاد التي نشأوا فيها والتي ارتحلوا إليها، والتي ماتوا فيها، وشيوخهم وتلاميذهم، وأهمية هذا العلم تعود إلى أنه يكشف كذب بعض الرواة كأن يحدث عن راوٍ آخر لم يعاصره فيكشف تاريخ الوفاة مثلاً عن كذبه.

علم الجرح والتعديل: هو أحد فروع علم رجال الحديث، وأولاه العلماء اهتمامًا كبيرًا لأنه يضم القواعد والأصول لمن يحدث عن رسول الله فهو يبحث في أحوال الرواة من جهة أمانتهم فيقبل حديثه وما عدا ذلك فلا يقبل حديثه، لذلك فهو العلم الذي توزن فيه الرجال حتي أن العلماء أطلقوا عليه اسم "علم ميزان الرجال"***

* التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذكرة، تحقيق عبود الشالجي، ج ١، ١٩٧٢م، ص ٢. طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة، ج ١، ص ٣٩٧.

هو علم إسناده السنة إلى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم، ليقع الوثوق بأخبارهم^١. احتل علم الحديث المنزلة الثانية في الأهمية بعد علوم القرآن الكريم، وقد كانت دراسة علوم القرآن باعثاً قوياً على ظهور علم الحديث الشريف، وذلك لأنه يفصل ما أجمله القرآن الكريم ويفسر ما يصعب على الناس فهمه، فقد شرحت الأحاديث الكثير من الآيات القرآنية^٢، يقول الله عز وجل في كتابه العزيز ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^٣. كما أن الحديث أوسع منبع للتشريع في العبادات والمسائل الدينية والجنائية^٤.

من هنا كان اهتمام الناس بالحديث فقرنوه بالقرآن واعتبروا ثقافة القرآن والحديث هي الثقافة الدينية للناس، ونتج عن هذه الأهمية أن قامت رحلات عدة في طلب الحديث، وكان لتلك الرحلات أثر بعيد في انتشار السنة، كما كان لها فائدة عظيمة في معرفة طرق كثيرة للحديث الواحد، فقد يسمع الراوي من علماء البلد الذي رحل إليه زيادات لم يسمعها من علماء بلده، وكثيراً ما يجد عندهم ما لم يجده عند شيوخه، وقد تقع مناظرات بين علماء الأمصار وتعرض فيها الأحاديث المختلفة، فيعرف الحديث القوى من الضعيف، ويزداد الطلاب معرفة لأسباب ورود الحديث^٥.

***سالم إسماعيل: دراسات في علم الحديث، باكستان، المكتبة العلمية بلاهور، (د.ت)، ص ١٠، ٩٥، ١٧٦، ٢١٠، ٢٢٦.

١- ابن خلدون: المقدمة، ج ٣، ص ٩٣١. حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٤٠.

٢- رحيم كاظم، عواطف محمد: الحضارة العربية الإسلامية، ص ٢٠٩.

٣- النحل: (٤٤)

٤- عبده الشامي: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها، ط ٥، بيروت، دار صادر، ١٩٧٩م، ص ١٨٠.

٥- محمد عجاج الخطيب: أصول الحديث علومه ومصطلحه، ص ١٣٤.

صنف العلماء في الحديث ما لا يحصي من المصنفات، وقد اختلفت مقاصدهم في تأليفها وجمعها وترتيبها، فمنهم من اعتمد علي ذكر أحاديث التوحيد وإثبات الصفات، ومنهم من قصد ذكر أحاديث الأحكام ومنهم من اقتصر علي العبادات^١، كتب هؤلاء كتبهم كتابة وثيقة فيها الإسناد، وفيها الرواية، وفيها كثرة الطرق والروايات التي تبين كل حديث كيف وصل من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي أصحابه ثم التابعين ثم تابع التابعين إلي أن تصل إلي أصحاب الكتب المدونة التي أحصوا فيها تلك الأحاديث وأوردوا فيها الأسانيد^٢، فلم يكن هناك تهاون في علم الحديث فوقوع المحدث في غلطة واحدة كافٍ للقضاء عليه نهائياً وإخراجه من زمرة المحدثين^٣.

شهد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي اكتمال جمع الحديث وتدوينه وتصنيفه، ثم بعد ذلك انصرف العلماء إلي تلك الكتب الموثوق في صحتها، وأخذوا يشرحوها ويهذبونها ويعيدون ترتيب الأحاديث وفق أنماط جديدة^٤.

ومما يوضح أهمية علم الحديث أن معظم العلوم والمعارف تأثرت بعلم الحديث، فقد أخذت تلك العلوم بأساليب الحديث واتباع طريقة النقل بواسطة سلاسل السند، فقد كانت القاعدة الإسلامية المتبعة تشير إلي أن أي شخص لم يتلمذ علي شيخ أو سمع عليه لا يصلح أن يتولي الرواية أو التدريس، وهذا من قواعد علم الحديث. وأكبر تأثير لعلم الحديث كان علي علم التاريخ، إذ كان الرواة في أغلب الأحيان رواة حديث وتاريخ في آن واحد، كما أن أساليب النقل وترتيب المواد كانت متماثلة في كلا العلمين اللذين اعتمدا علي

^١ - حاجي خليفة: كشف الظنون، ج ١، ص ٥٢.

^٢ - عبد الستار أبو غدة: رب زدني علماً، ص ٦٤.

^٣ - منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ١٠٧.

^٤ - رحيم كاظم، عواطف محمد: الحضارة العربية الإسلامية، ص ٢١٢.

الرواية الشفهية بالدرجة الأولى، بل إن المجموعات الأولى للحديث والتاريخ كانت واحدة، والمؤرخون كانوا هم أنفسهم المحدثين في الوقت ذاته^١.

صنف المشتغلون بعلوم الحديث وفق حفظهم وإتقانهم إلى:

- طالب الحديث: وهو من شرع في طلب الحديث
- المسند: وهو من يروى الحديث بسنده سواء أكان عنده علم به أم ليس له إلا مجرد الرواية

▪ المحدث: وهو من يشتغل بعلم الحديث رواية ودراية ويعرف السانيد والعلل وأسماء الرجال، ويعرف علومه واصطلاحات أهله، ويحفظ كثيرًا من المتون^٢

▪ الحافظ: وهو أرفع درجة من المحدث بحيث يكون ما يعرفه في كل طبقة أكثر مما يجهله، ويحيط بما أجمع عليه العلماء وما اختلفوا عليه، وهذه الرتبة لا تطلق إلا على من تبحر في هذا العلم وأوتى سعة وبسطة في معرفته وتفهمه والوقوف على دقائقه^٣

كانت مدينة "غزة" قبلة للراغبين في دراسة علم الحديث وروايته من شتى بقاع العالم الإسلامي، فالمحدث لم يكتف ببلد واحد في رحلته لطلب الحديث، بل كان يتنقل بين عدة بلدان للتأكد من صحة الأحاديث التي يرويها، وكانت "غزة" محطة لكل من يقوم بتلك الرحلات^٤.

١- منير الدين أحمد: المرجع نفسه، ص ٢٢.

٢. السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، ج ١، ط ٢، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٦م، ص ٤٣. محمد عجاج الخطيب: أصول الحديث علومه ومصطلحه، ص ٤٤٦.

٣. منيرة ناجي سالم: تاج الإسلام أبو سعد السمعاني وكتابه التحرير في المعجم الكبير، ص ٣٢١.

٤- ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين العمري، ج ١، بيروت، دار الفكر العربي، ١٩٩٥م، ص ١٤.

ومن هؤلاء المحدثين:

"أبو سعد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن إدريس الإستربازي" (ت ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م) الحافظ ويعرف بالإدريسي، رحل إلى مدينة "غزة" ومنها إلى الهند، اهتم بالحديث^١.

"أبو سعد محمد بن منصور الحسن الجولكي الجرجاني" حدث بمدينة "غزة" ونيسابور وهراة، سمع "أبا بكر الإسماعيلي" و"أبا أحمد الغطريفي"، وروى عنه "نجيب بن ميمون" وآخرون^٢.

"أبو عبد الله محمد بن الحسين بن إبراهيم بن علي بن عمروية الإسفرائيني" (ت ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م) نزل "غزة" حيث حدث بها، كما حدث بنيسابور سنة (٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م)، أخذ من "الغطريفي" وطبقته، وروى عنه "أبو صالح المؤذن"^٣.

الإمام "أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل الصابوني المعروف بشيخ الإسلام" (ت ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م)، كان مفسراً ومحدثاً وفقهياً وواعظاً حيث اشتغل بالوعظ ستين سنة، سمع "أبا طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحق بن خزيمة" و"أبا بكر الجوزقي" وأستاذه "الحاكم أبا عبد الله" وغيرهم، وسمع منه الحديث الإمام "أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي" وغيره كثير من علماء "غزة" وبلاد الهند وجرجان وطبرستان^٤.

^١ - سامية مصطفى مسعد: دور سلاطين غزة في نشر الإسلام في الهند، ص ٢٨٥.

^٢ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٢٨، ص ٢١٥.

^٣ - المصدر السابق والجزء، ص ٥٠٧.

^٤ - ابن الأثير: اللباب، ج ٢، ص ٤٤. السمعاني: الأنساب، ج ٣، ص ٥٠٦. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٧، ص ١٦.

كان أُوحد وقته في طريقته حافظاً كثير السماع والتصنيف، حريصاً على العلم سمع الكثير، رحل ورزق العزة والجاه في الدين والدنيا، كان سيف السنة ودافع أهل البدع^١.

"أبو عثمان سعيد بن أبي سعيد أحمد النيسابوري الصوفي المعروف بالعيار" (ت ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ م) رحل في طلب الحديث، ودخل "غزة" وأقام بها فترة وتوفي بها، حدث بصحيح البخاري عن "محمد بن عمر بن شبويه"، وروى عنه "أبو عبد الله العزاوي" و"أبو القاسم الشحامى" و"أبو المعالي محمد بن إسماعيل الفارسي". ومما ذكر عنه أنه كان لا يروي شيئاً من علمه، فرأى بدمشق رؤيا حملته علي رواية مسموعاته، فقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم فأراد أن يسلم عليه فتلقاه "أبو بكر الصديق" برسالة عتاب من الرسول صلى الله عليه وسلم: كيف لا تروى أخباري وتنشرها؟، فقال فأنا منذ ذلك أطوف في البلدان وأروى مسموعاتي^٢. وعمّر حتى جاوز المائة وتفرد بالرواية عن شيوخه، وخُرج له أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي "الفوائد" في عشرين جزءاً انتقاها من أصوله وحدث بها، وقد حدث أبو عثمان بدمشق وأصبهان وهرارة وغزنة، وروى عنه الكبار والأئمة^٣.

"أبو عبد الرحمن حنبل بن أحمد بن حنبل الفارسي" (ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م) نزيل "غزة"، وهو من مشاهير مشايخ عصره، سمع بنيسابور "أبا عبد الرحمن السلمي" و"أبا سعد الزاهد" و"أبا بكر الحيري"، رحل إلي "غزة" وحدث بها^٤.

"أبو الحسن علي بن محمد بن نصر الدينوري اللبان" (ت ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م) نزيل "غزة" ومحدثها، كان أحد الجوالين لطلب علم الحديث وجمعه، روي الكثير "بغزنة"،

١- ابن كثير: طبقات الفقهاء الشافعيين، تحقيق أحمد عمر هاشم ومحمد زينهم، ج ١، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٣ م، ص ٤٠٨. ابن قاضي شعبة: طبقات الفقهاء الشافعية، تحقيق علي محمد عمر، ج ١، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، (د.ت)، ص ٢٠٣.

٢- الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٠، ص ٤٣٢. سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ٨٦: ٨٨.

٣- الصفدى: الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص ١٢٣.

٤- الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٠، ص ٤٨٣.

سمع في كل بلد مر به، فسمع "أبا عمر بن مهدي" ببغداد، و"أبا عمر الهاشمي" بالبصرة، و"أبا عبد الرحمن السلمي" و"أبا بكر الحيري" بنيسابور، روى عنه "مسافر" و"أحمد" ابنا "محمد بن علي البسطامي"، كما روى عنه "أبو بكر الخطيب"، وأجاز "حنبل بن علي"، وجمع الكثير من الأحاديث، وكان ثقة في رواية الحديث^١.

"أبو عبد الله عيسى بن شعيب بن إبراهيم السجزي الصوفي المحدث" (ت ٥١٢ هـ / ١١١٨ م) مولده بسجستان، سمع من "علي بن بشرى الليثي"، وبغزنة من "الخليل بن أبي يعلى" قال عنه "أبو سعد السمعاني": هو صحيح صالح حريص علي السماع^٢.

السيد العالم العدل "أبو القاسم علي بن أحمد بن الحسن الصيرفي الفارسي" (ت ٥١٥ هـ / ١١٢١ م) من أصحاب الحديث البارعين، كان له أسانيد عالية، ومن مشايخه "أبو عثمان سعيد بن أبي سعيد العيار"، وذكر أنه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام بالشام، فقال له: جمعت أحاديثي فارتحل إلي خراسان، فأسمعها الناس، فأتي "غزنة" فأسمع بها الحديث، ووصل صيته لسلطان "غزنة" فأعطاه ألف دينار، توفي بسمرقند ودفن في مشهد أصحاب الحديث "بجاكرديزة"^٣.

"أبو الفتوح بركات بن المبارك بن إسماعيل" من أهل "غزنة" (ت ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م)، كان فقيهاً فاضلاً مناظراً من أصحاب الحديث، له مصنفات عدة أعربت عن غزارة علمه وبراعة أدبه وحسن فضله، ومن أهم مصنفاته كتاب "لمع التواريخ" الذي توقف فيه حتي سنة (٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م)، وكتاب "الشعر والشعراء" الذي حدث فيه عن أفاضل الشعراء^٤.

^١ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ٣٦٩.

^٢ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٣٩٠. تاريخ الإسلام، ج ٣٥، ص ٣٣٩.

^٣ - النسفي: القند في ذكر علماء سمرقند، ص ٥٦٣.

^٤ - عماد الدين الأصفهاني: خريدة العصر، ج ٢، ص ١٤٨.

"أبو الحسن بن غافر بن إسماعيل بن سعيد الفارسي الحافظ" (ت ٥٢٩هـ / ١١٣٤م)، كان إماماً في الحديث، تفقه علي إمام الحرمين "أبي المعالي الجويني"، سمع منه الحديث الكثير، رحل إلي عدة بلاد منها "غزة"، وروى بها الأحاديث، وقرئ عليه لطائف الإشارات، صنف كتباً عديدة منها "المفهم لشرح غريب صحيح مسلم" وكتاب "مجمع الغرائب في غريب الحديث"، ومؤلفات كثيرة غير ذلك^١.

"أبو القاسم الجنيد بن محمد بن مظفر الغزنوي" (ت ٥٤٠هـ / ١١٤٥م) سمع بنيسابور، كما سمع بسر خس "أبا بكر بن عبد الغفار السيروي" و "ناصر بن محمد العياض"، وسمع ببغداد من "أحمد بن محمد بن عبد الواحد المتوكلي"، وسمع منه "أبو سعد" بسر خس^٢.

"أبو الفضل محمود بن أحمد بن عبد الرحمن الغزنوي" (ت ٥٦٣هـ / ١١٦٧م) حدث بكتاب "تفسير الفقهاء وتكذيب السفهاء" "لأبي الفتح عبد الصمد بن محمود بن يونس الغزنوي"، وصحب "أبا الفتوح أحمد بن محمد الغزالي" وأخذ عنه علم الوعظ، وقدم بغداد سنة (٥٥٧هـ / ١١٦١م)، وعقد بها مجلس الوعظ ثم انتقل إلي واسط فسكنها حتي وفاته^٣.

"أبو مسلم عمر بن علي بن أحمد بن الليث البخاري" سمع "بغزة" "مظفر بن الحسين علي بن محمد الدينوري اللبان" و "سعيد العيار"، وحدث عنه "أبو الحسين بن الطيوري" و "أبو غالب بن البناء" وآخرون، وكان شديد العناية بصحيح الحديث^٤.

يتضح من العرض السابق لأهم علماء الحديث في مدينة "غزة"، أنهم كانوا أئمة في الحديث والفقه، وقد أضيفت صفة الفقه إليهم لبيان أنهم لم يكونوا ممن يكتفون برواية

^١ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١٣، ص ٢٢٥. السبكي: طبقات الشافعية، ج ٧، ص ١٧٣.

^٢ - القرشي: الجواهر المضيئة، ج ٢، ص ٢٢.

^٣ - المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣٠.

^٤ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ٤٠٨.

الأحاديث بل كانوا ممن يفهمونها ويستطيعون استنباط الأحكام منها، فقد انتقد ابن الجوزي في كتابه "تلبيس إبليس" تلك الفئة من أصحاب الحديث التي لا تفهم الأحاديث التي جمعتها، ومنهم من كان يجهل الفقه إلى حد اللجوء إلى بعض طلابهم ممن لهم دراية بالفقه لمعرفة بعض الأحكام الشرعية^١.

ثالثاً: علم الفقه وأصوله

الفقه في اللغة هو العلم بالشئ والفهم له والفطنة، وفي الاصطلاح هو العلم بالأحكام الشرعية العلمية المكتسبة من أداتها التفصيلية (أى ما ورد في القرآن الكريم وفي السنة من الآيات والأحاديث الدالة على الحكم مباشرة)، فاستخراج الأحكام من تلك الأدلة يقال له فقه، وهو مستنبط بالرأي والإجتهد، ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل وهو المسمي بعلم الحلال والحرام والشرائع والأحكام^٢. كذلك سمي علم الفقه بعلم الفروع لأن علماء الدين في الإسلام جروا على تشبيه التشريع بشجرة لها أصول وفروع^٣. ولفظ الفقه كان في بداية الإسلام لفظ مطلق شمل العلوم كلها وخاصة علم الآخرة^٤، ثم تميز الفقه تدريجياً

^١ - ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ضبط نصوصه وخرج أحاديثه حلمي بن إسماعيل، الأسكندرية، دار العقيدة للتراث، ٢٠٠٠م، ص ١٢٧.

^٢ - الأمدى: الإحكام في أصول الأحكام، القاهرة، مطبعة المعارف، ص ٢٧. الغزالي: المستصفى من علم الأصول، تحقيق محمد سليمان الأشقر، ج ١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م، ص ٣٥. اليوسفى: البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع في أصول الفقه، ج ١، تحقيق حميد حماني اليوسفى، الدار البيضاء، ٢٠٠٢م، ص ١٦٨.

^٣ - عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٧٦.

^٤ - الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٤٣.

فأصبح يعنى إعمال الذكاء لفهم الأحوال الخاصة وإصدار أحكام بشأنها عن طريق تفسير العلم واستلهامه^١.

وعلم الفقه ذو أهمية كبيرة لأنه يُعين المسلمين علي حل مشاكل دينهم ودنياهم، فنجد أنه يشمل كل نواحي الحياة الدينية والسياسية والمدنية، فهو علم "القانون الإسلامي" دينياً ودينيّاً، فيدخل في تنظيم العبادات وتنظيم أمور الدنيا من عقوبات ومناكحات ومعاملات، كذلك يدخل فيه القوانين التي تنظم إدارة الدولة ودستورها وأمور الحرب، فكل نواحي الحياة العامة والخاصة يلزم تنظيمها قوانين يقرها الدين وذلك هو علم الفقه^٢. فالفقيه يقوم بدراسة الوقائع المادية والقولية، ثم ينظر في ما لديه من أحكام ليقرر ما ينطبق منها على الواقعة محل النظر، إنه يطبق الأحكام الشرعية علي أفعال الناس وأقوالهم لمعرفة الرأي الشرعي فيها، ولتحديد الحقوق والواجبات ولمعرفة ما هو واجب، وما هو مستحب، وما هو مكروه.

وكفى بهذا العلم شرفاً وفخراً قول الإمام الشافعي رضي الله عنه "العلم علمان علم الطب للأبدان، وعلم الفقه للأديان"^٣. وقول أحد شعراء "غزة" وهو الشاعر "بديع الترك":

واسمع من العلم ما صحّت روايته واستوف حظك قبل الفقه من أدب
عليك بالفقه من بين العلوم لكي ترقى إلي الذروة العليا من الرتب^١

^١ - جوستاف لوبون: حضارة الإسلام، ص ١٨٦. عبد المنعم الحنفي: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية، القاهرة، مطبعة الإرشاد، ١٩٩٣ م، ص ٨١.

^٢ - ابن المرتضى: كتاب البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار ويليهِ كتاب جواهر الأخبار والآثار للعلامة المحقق محمد بن يحيى بهران الصعدي المتوفى (٩٥٧هـ)، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٤٧ م، ص ٢. ناجي معروف: تاريخ الحضارة العربية، ص ٢٢٦. جاد الحق علي جاد الحق: الفقه الإسلامي، نشأته وتطوره، معهد الدراسات الإسلامية، دار السعادة للطباعة، ١٩٩٥ م، ص ٧.

^٣ - طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة، ج ١، ص ٢٦٧.

لم يظهر الفقه كعلم في أول الأمر لوجود الصحابة والتابعين، ولكن عندما تعددت مشاكل الإسلام وُبعد العهد بظهور الإسلام احتيج إلي ضبط الشرع فظهر علم الفقه، ولكنه لقي مقاومة شديدة أول الأمر، شأن كل جديد إذ بسببه صارت أحكام الشريعة مسائل نظرية، وتحول امتثال أوامر الدين إلى تعمق وتدقيق في النظر، وقد أثار هذا معارضة من جانب أهل الورع، ومن جانب رجال السياسة أيضًا، ولكن الناس أخذوا يعترفون شيئًا فشيئًا بأن علماء الشريعة هم ورثة الأنبياء^٢.

بعد ذلك ظهرت عدة طرق فقهية وهى ليست فرقًا وإنما دراسات لذلك أطلق عليها مذاهب فقهية^٣، وتعتبر المذاهب الفقهية أهم مرحلة من مراحل نمو الفقه الإسلامى لأنها مرحلة النضج والكمال والتدوين له^١.

١- عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر، ج ٢، ص ١٦٣.

٢- محمد جلال شرف: التصوف الإسلامى ومدارسه، دار المطبوعات الجامعية، الأسكندرية، ١٩٧٤م، ص ٢١.

٣- *مصطلح المذهب مشتق من الفعل ذهب أى أتبع طريقًا معينًا، ويستخدم للدلالة على اتجاه أو فكر أو مبدأ معين، ومعناه المبادئ التى لا يدور حولها خلاف فى الرأى، فإذا استعمل مضاف إليه كأن تقول: مذهب مدرسة فقهية معينة يكون معناه: المبادئ التى تحظى بإجماع فقهاء هذه المدرسة، أما إذا استعمل على إطلاقه فيمكن اعتباره مرادفًا لكلمة "إجماع"، وعلي العكس من ذلك تعني كلمة "الخلاف" الاختلافات فى الرأى بين الفقهاء سواء كانوا من مذهب واحد أم من جميع المذاهب الفقهية، كما يظهر التضاد بين الإجماع والخلاف أيضًا فى التضاد بين المذهب والخلاف، فالخلاف له علاقة بالمسائل الفقهية المختلف عليها، وهى المسائل الخلافية، ومن أراد الاشتغال بالخلاف فعليه أن يتقن الجدل والمناظرة. * والمذهب الفقهى ليس إلا مدرسة لفقهاء تفرغ لمعرفة الأحكام وتابعه تلاميذه وأصحابه وقلدوه، حتى نشأ له اتجاه يسلكه فى فهم الأحكام الشرعية، وكان من دأب هؤلاء الأصحاب أن يحفظوا أقوال أئمتهم ليحفظوا أوقاتهم من تكرار البحث فيما سبق، ولم يكن أحد من الأئمة يأمر أو يرضى لأصحابه أن يكتبوا أقواله دون اقتناع، بل كان أكثر هؤلاء الأئمة يحثوا أصحابهم على أن ينظروا من حيث نظروا وأن يجتهدوا من حيث اجتهدوا، ولكن ما كان عليه هؤلاء الأئمة من تفوق ونبوغ جعل أصحابهم يهتمون بحفظ أقوالهم وتدوينها إلى أن نشأت المذاهب الفقهية، والى كان جل اهتمامها تطبيق القرآن والحديث وتيسير

ومن أهم مذاهب أهل السنة الفقهية أربعة مذاهب ترك أصحابها مؤلفات صار الفقهاء مقيدين بها، وهى: مذهب أهل الرأي أتباع الإمام "أبي حنيفة" (١٥٠: ٨٠ هـ / ٦٩٩ م) ومذهب أهل الحديث أتباع الإمام "مالك" (٩٧: ١٧٩ هـ / ٧١٥: ٧٩٥ م)، ومذهب الإمام "الشافعي" (٢٠٤: ١٥٠ هـ / ٨١٩: ٧٦٧ م)، ومذهب الإمام "أحمد بن حنبل" (١٦٤: ٢٤١ هـ / ٧٨٠ م: ٨٥٥ م).^٢

أجمعت المذاهب الفقهية الأربعة على القول بأن القرآن الكريم والسنة مصدرا للفقهاء الإسلاميين الرئيسيين، والقياس^٣ والإجماع^٤ مصدران متممان^١. فالحديث يساند القرآن

للناس سلوك أحكام الله عز وجل والتعرف على دين الله تعالى، وتنظيم العلاقة بين الناس بعضهم مع البعض الآخر.

*جورج المقدسى: نشأة الكليات، ص ١٢٦: ١٢٨.

**عبد الستار أبو غدة: رب زدنى علماً، ص ٦٨. أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ٣.

^١ - أبو زيد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٢٠.

^٢ - ابن خلدون: المقدمة، ج ٣، ص ٩٤٩.

^٣ - القياس: *هو قياس ما لم يرد حكمه في الكتاب والسنة على ما ورد حكمه فيها لاتفاق المقتبس والمقتبس عليه في علة الحكم *** ولا بد لصحة القياس من مقدمات ثلاث: (١) استنباط علة الحكم الذى فيه نص من كتاب الله أو سنة رسوله. (٢) التماس تلك العلة في الواقعة الأخرى التي لا نص على حكمها. (٣) تساوى الواقعتين في الحكم بعد تساويهما في العلة، *** وقع استعمال القياس في أول الأمر وعلى أوسع صورة بين الحنفية ثم بين الشافعية من بعدهم، ولكن في مجال أضيق، ولم يرفضه إلا "ابن حنبل".

*محمد عادل عبد العزيز: الحضارة الإسلامية، ص ١٨٠. ***رحيم كاظم، عواطف العربى: الحضارة العربية الإسلامية، ص ٢١٥. ***دى بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٣٨ م، ص ٤٤. جوستاف لوبون: حضارة الإسلام، ص ١٩٠.

^٤ - الإجماع: هو اتفاق آراء جميع مجتهدى الأئمة على أمر من الأمور في الحالات التى لم يرد فيها نص من الكتاب أو السنة. محمد عادل عبد العزيز: المرجع نفسه والصفحة. عبده الشمالى: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها، ص ١٨١.

الكريم في تقديم مادة الفقه، فمن نصوصها صيغت القواعد واستنبطت الأحكام، ولا غنى للباحث في الفقه الإسلامي عن الحديث لأنه المبين للقرآن، المفصل لمجمله المقيد لمطلقه، المعبر عن روحه واتجاهه^٢. أما القضايا الفقهية التي لا تجد حلها أساساً صريحاً في القرآن أو السنة يمكن أن تنظم بالإجماع، ولذا فإن الفقه الإسلامي لا يكون جامداً مغلقاً من حيث المبدأ، ولكن كانت هناك درجة من الحرية سادت في تفسير آي القرآن الكريم والحديث وتفاوت استعمال الإجماع والقياس^٣.

أدت المناظرة دوراً مهماً في تطور الفقه وإيضاح معالم أصوله عند المسلمين، وكان الخلاف الفقهي يرافق تطور الحياة وما يحدث من وقائعها ذلك الخلاف الذي عبر عنه الفقهاء بالمناظرة^٤. كما كان من عوامل النشاط الفقهي بين العلماء ما يتمتعون به من حرية الرأي في البحث العلمي، وحرية الاجتهاد في الاستنباط، فكل من استكمل أدوات الاجتهاد عليه أن يجتهد في الوصول إلى الأحكام من مصادرها، دون أن تتحكم فيه سلطة أو يحجر عليه في رأي^٥.

هذا وقد تحول علم الفقه تحولاً جديداً في القرن الرابع الهجري، وكان من أكبر مظاهر هذا التحول وقف باب الاجتهاد، لأن هذا العلم وصل إلى ذروة مجده في القرون السابقة، لذا أقفل العلماء باب الاجتهاد المطلق، وفتحوا باب الأخذ بالرأي في فهم القرآن والحديث^٦.

^١ - حيدر بامّات: مجالي الإسلام، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٦ م، ص ١٨٤.

^٢ - عبد المجيد محمود: المدرسة الفقهية للمحدثين، مدخل لدراسة الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث، القاهرة، مطبعة دار نشر الثقافة، ١٩٧٢ م، ص ١٤.

^٣ - حيدر بامّات: مجالي الإسلام، ص ١٨٢.

^٤ - رحيم جبر الحسناوي: المناظرات اللغوية والأدبية، ص ٢٨.

^٥ - جاد الحق علي جاد الحق: الفقه الإسلامي، ص ٧٨.

^٦ - محمد حسن العبادي: خراسان في العصر الغزنوي، ص ٣٠٢.

ترتب علي غلق باب الاجتهاد أن وجه الفقهاء نشاطهم إلى المسائل السياسية، فمنهم من دخل مجال العمل الإداري، ومنهم من شارك في إدارة المدارس الفقهية وخدمة النظام القائم في البلاد، كما كان الحال بالنسبة للعائلتين التبتانية والصاعدية في الدولة الغزنوية^١.

كما لم تظهر المنافسة بين المذاهب إلا في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي عندما فنيت المذاهب الصغرى، وبقيت المذاهب الكبرى وحدها في ميدان الخلاف، عند ذلك قويت المنافسة وصار أصحاب المذاهب يستعين بعضهم علي البعض الآخر بالسلطان خصوصاً في المشرق^٢، فكان الحكام والسلاطين يتدخلون تدخلاً رسمياً لفض المنازعات المذهبية. ففي عام (٤٠٨هـ / ١٠١٧م) أصدر الخليفة العباسي "القادر بالله" (٣٨١: ٤٢٢هـ / ٩٩١: ١٠٣٠م) كتاباً ضد المعتزلة^٣، أمرهم فيه بترك الكلام

^١ - البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٣٦: ٤٣، ٢١٢، ٢١٣، ٢٢٥، ٢٢٦.

^٢ - آدام متز: الحضارة الإسلامية، ص ٣٥٣.

^٣ - المعتزلة: *هم أتباع "واصل بن عطاء" الذي كان يجلس إلى "الحسن البصري"، فلما ظهر الخلاف وقالت الخوارج بكفر مرتكب الكبائر، وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر، فخرج "واصل" عن الفرقتين وقال إن هذا الفاسق لا مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين المنزلتين، فطرده "الحسن" من مجلسه، فاعتزل عنه فليل لأتباعه المعتزلة، وهذه الحركة التي جمعت الأوساط العقلية والتي دخلت لهذا في تعارض مع الآراء الدينية السائدة حينذاك، وفي نهاية تطور هذه الحركة استحق أنصارها اسم المفكرين الأحرار في الإسلام، فبدايات هذا المذهب الإعتزالي تدلنا على وجود نزعة تحرر، فهو لاء وسعوا معين المعرفة الدينية بأن أدخلوا فيها عنصرًا آخر وهو العقل الذي كان حتى ذلك الحين مبعداً بشدة عن هذه الناحية. *وللمعتزلة ست فرق: الفرقة الأولى هي الحسنية، وهم المنتسبون علي زعمهم إلي "الحسن البصري"، والثانية الهذيلية أصحاب "أبي الهذيل العلاف، والثالثة النظامية أصحاب "إبراهيم بن سيار النظام"، والرابعة المعمرية أصحاب "معمر بن عباد"، والخامسة البشرية المنسوبة إلي "بشر بن المعتمر"، والسادسة الجاحظية أصحاب "عمرو بن بحر الجاحظ" * * *. وكان = الغالب عليهم حب المناظرة والاختلاف، فنجد كل شيخ منهم يعارض سائر الشيوخ ويناقضهم، غير أن المعتزلة بالرغم من كثرة ما بينهم من خلاف يتفقون بوجه عام على أصول خمسة من اعتقدها كان معتزلياً، وهي: القول بالتوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والنهي عن المنكر، علي أن أسوأ ما تورط فيه المعتزلة القول بخلق القرآن وتكليفهم بخصوصهم.

والتدريس والمناظرة في الاعتزال والمقالات المخالفة للإسلام وامثل السلطان "محمود" لأمر خليفة المسلمين واستن بسنته في قتل المخالفين ونفيهم ولعنهم علي المنابر^١.

كان المذهبان الحنفى^٢ والشافعى^٣ هما الغالبان في منطقة نفوذ الدولة الغزنوية، وكان التنافس بينهما شديدا ولكن الغلبة كانت للمذهب الحنفى، فكانت المناصب الدينية

*رشيد حميد الجميلي: حركة الترجمة في المشرق الإسلامى، ص ٣٦٤. **الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ٢٤.

**الهجویری: كشف المحجوب، ص ١٩٦.

^١- ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٣، ص ١٨٦. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٧، ص ٢٨٧. الذهبي: العبر، ج ٢، ص ٢١٥.

^٢- مؤسس المذهب الحنفى هو* "أبو حنيفة النعمان ثابت بن زوطي" (١٥٠: ٨٠هـ / ٦٩٩ م: ٧٦٧ م) الإمام الأعظم وفقه العراق والذي كان بفضل في الفقه استعمال الرأى على الحديث. ** ويمثل هذا المذهب مذهب التسامح الدينى في دراسة العلوم العقلية حتى نستطيع أن نصرح بأن المذهب الحنفى من أعظم الأسباب في تقدم الفلسفة عند المسلمين.

*عبد العزيز ولى الله الدهلوى: بستان المحدثين في بيان كتب الحديث وأصحابها الغرب الميامين، بيروت، دار الغرب الإسلامى، ٢٠٠٢م، ص ٦٥. بروكلمان: تاريخ الأدب العربى، ج ٣، ص ٢٣٥. روم لاندو: الإسلام والعرب، بيروت، ترجمة منير البعلبكي، ١٩٦٢م، ص ١٩٢.

*مصطفى جواد: الثقافة العقلية والحالة الاجتماعية في عصر الرئيس "أبى على بن سينا"، مجلة المجمع العلمى العرقى، المجلد الرابع، ج ٢، ١٩٥٦م، ص ٥١١.

^٣- مؤسس المذهب الشافعى هو الإمام "محمد بن إدريس الشافعى" (٢٠٤: ١٥٠هـ / ٧٦٧ م: ٨١٩ م)، ومدرسة الشافعى تتوسط مدرستي الحديث والرأى، واستطاع الشافعى أن يضع للفقهاء أصولا للاستنباط وقواعد للاستدلال. عبد الوهاب الشعرانى: الطبقات الكبرى، ج ١، مصر، المطبعة العامرة الشرفية، ١٣١٥ هـ، ص ٤٣. بروكلمان: المرجع نفسه والجزء، ص ٢٩٣. عبد المنعم الحنفى: موسوعة الفرق، ص ٢٥٤، ٢٥٥. محمد بن حسين الجيزانى: معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، السعودية، دار ابن الجوزى، ١٩٩٦م، ص ٢٧.

والقضائية حكراً علي أصحاب المذهب الحنفي^١. وكان من المنطقي أن يتجه الغزنويون إلى المذهب الشافعي تمسحاً مع ميل الأتراك عامة إلى المذاهب التي تعتمد أكثر علي الأحاديث، ولأن السلطان "محمود" كان شديد الولع بعلم الحديث ودراسته^٢، ولكن ما حدث هو العكس، فقد كان الغزنويون يتبعون المذهب الحنفي الذي يحكم العقل في المشكلات الدينية، ويقول بالرأي والقياس في الأحكام، وقد عبر "البستي" عن مدي تمسك الغزنويين بمذهب "أبي حنيفة" وحده، فقال: الفقه فقه أبي حنيفة وحده....^٣

ظل هذا المذهب يحظي برعاية واهتمام السلطان "محمود"، وحرص علي رعاية أتباعه وتكريم رجاله، ومن هؤلاء أسرة "التبائين"^٤، فقد قال للخواجه "علي ميكائيل" سنة (٤٠٢هـ / ١٠١١م): "إن التبائين وتلامذتهم هم من أصدق أتباع مذهب "أبي حنيفة" ولا يمكن الطعن فيهم بأي حال، والآن وقد توفي أبو صالح فإذا بلغت نيسابور فأسأل عمن بقي من التبائين وأيهم يليق "بغزنة" وبمجلسنا فأشملهم بعطفك وعدهم برعايتنا وحسن اصطناعنا ومعروفنا"^٥ وقد قرب السلطان إليه الكثير من أفراد هذه الأسرة، ومنهم "أبو صادق التباني" و"أبو طاهر التباني" وغيرهما^٦. وقد استمر هذا الاهتمام في عهد السلطان "مسعود"، فقد قدم القاضي "أبو محمد الناصحي" كتاباً للسلطان "مسعود" في الفقه الحنفي.

^١ - بدر عبد الرحمن: رسوم الغزنويين ونظمهم الاجتماعية، ص ١٠١. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ١٤٧.

^٢ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٧، ص ٤٨٦، ٤٨٧.

^٣ - العتبي: تاريخ اليميني، ج ٢، ص ٣١٠. عبد العظيم رضايي: تاريخ ده هزار ساله إيران، ج ٣، ص ٣٧.

^٤ - تنتمي أسرة التبائين إلى الإمام "أبي العباس التباني" الذي كان من تلاميذ الإمام أبي حنيفة، والقاضي "أبو يوسف"، وكان "أبو صالح التباني" مؤدب السلطان "مسعود" والسلطان "محمد" ابني السلطان "محمود الغزنوي". (البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٢١٣، ٢١٤)

^٥ - البيهقي: المصدر نفسه، ص ٢٢٥.

^٦ - البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٢١٣، ٢٢٥.

وبالرغم من ذلك كان المذهب الشافعي يعيش جنباً إلى جنب مع المذهب الحنفي، وإن كان دونه في الاهتمام، وكان رجاله ينعمون بتقدير السلاطين^١.

أنجبت "غزنة" عددًا كبيرًا من علماء كلا المذهبين الحنفي والشافعي، وكان لهم مؤلفات عديدة، وهي لا شك ثروة ثقافية لها شأنها في بناء الفكر الإسلامي.

أهم علماء المذهب الحنفي:

يعد السلطان "محمود الغزنوي" من أهم فقهاء المذهب الحنفي، فقد برع السلطان "محمود" في الفقه والخلاف وصار معدودًا من العلماء، وصنف كتابًا في الفقه الحنفي قبل توليه السلطة، وهو كتاب "التفريد على مذهب أبي حنيفة"، وهو غاية في الجودة وكثرة المسائل لعله في نحو ستين ألف مسألة^٢.

الفقيه "أبو صالح التباني" من أهم فقهاء أسرة التبانين، أخذ السلطان "محمود" معه من نيسابور إلى "غزنة" عام (٣٨٥هـ / ٩٩٥م) ليشغل بتدريس الفقه الحنفي في مدرسة "باب بستان"، وتخرج علي يديه الكثيرون، وقد بلغت مكانته العالية لدى السلطان "محمود" أنه عند موته عام (٤٠٠هـ / ١٠٠٩م) عزم علي أن يقوم بمأتمه ولكنه تراجع عن ذلك حفاظًا على هيئته، وأسند ذلك إلي وزيره الخواجه "أبي العباس الإسفرايني"^٣.

قاضي القضاة وإمام الإسلام "أبو محمد عبد الله بن الحسين الناصحي" وهو شيخ الحنفية في عصره (ت ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م) روى الحديث عن "بشر بن أحمد الإسفرايني" والحاكم "أبي محمد الحافظ"، ولي القضاء للسلطان "محمود" ببخاري، وكان له مجلس للتدريس والفتوى في غزنة، وله عدة تصانيف منها كتاب مختصر في الوقوف، ذكر أنه اختصره من كتاب الخصاص "لهلال بن يحيى"، وله طريقة حسنة في الفقه مرضية عند

١ - عبد الحميد الرفاعي: الدولة الغزنوية، ص ١٧٣.

٢ - القرشي: الجواهر المضيئة، ج ٣، ص ٤٣٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٧٣.

٣ - البيهقي: المصدر نفسه، ص ٢١٣، ٢١٤.

الفقهاء من أصحابه، كان ورعاً مجتهداً ثقة، روى عنه "أبو عبد الله الفارسي" وغيره^١، وصنف الكتاب "المسعودي في الفقه الحنفي"، وقدمه للسلطان "مسعود بن محمود"^٢.

القاضي "أبو العلاء صاعد بن محمد" وهو من أبرز قضاة المذهب الحنفي، ولد في إحدى نواحي نيسابور سنة (٣٤٣هـ / ٩٥٤م)، انتهت إليه رئاسة أصحاب الحنفية بخراسان في عهد السلطان "مسعود" كما كان أستاذاً له، وله كتاب يسمى "الاعتقاد"^٣.

"عبد الرب بن منصور بن إسماعيل بن إبراهيم" توفي في حدود الخمسمائة، شرح "القدوري" في مجلدين، وسماه "ملتبس الإخوان"^٤.

"أبو المكارم أحمد شاذ بن عبد السلام بن محمود الغزنوي الحنفي" (ت ٥٥٢هـ / ١١٥٧م) أحد كبار العلماء، عده علماء عصره بحر يتموج وفجر يتبلج وفقه مدره، كان عارفاً بتفسير كتاب الله تعالى، وكان يعقد مجالس الوعظ بجامع أصبهان كل يوم أربعاء، يتكلم فيها في التوحيد^٥.

"أبو الفضل محمد بن يوسف بن علي الإمام شهاب الدين الغزنوي المقرئ الحنفي الفقيه"، حدث ببغداد والشام ومصر، وحدث عنه جماعة، درس المذهب بمسجد الغزنوي المعروف به^٦ سمع في صغره من "أبي بكر قاضي المارستان"، و"أبي منصور بن خيرون"، وقرأ الرويات على "أبي محمد سبط الخياط" و"أبي الكرم الشهرزوري"، قرأ عليه

^١ - القرشي: الجواهر المضيئة، ج ١، ص ٢٧٤، ٢٧٥.

^٢ - عبد الحميد الرفاعي: المرجع نفسه، ص ٣٠٣. بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي، ص ٣٦٢.

^٣ - عبد الحميد الرفاعي: المرجع نفسه، ص ٣٠٣، ٣٠٤. سامية مصطفى مسعد: دور سلاطين غزة في نشر الإسلام في الهند، ص ١٨٢.

^٤ - ابن قطلوبغا: تاج التراجم في طبقات الحنفية، ص ٣٧.

^٥ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ٣٣٩. القرشي: الجواهر المضيئة، ج ١، ص ٣٥٩. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٨، ص ٢٠١.

^٦ - ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٤٣. ابن الجزري: غاية النهاية، ج ٢، ٢٨٦.

العلّامتان "أبو الحسن السخاوي" و "أبو عمرو بن الحاجب" و "الكمال الضير" والحافظان "ابن خليل و الضياء"، توفي سنة (٥٥٩هـ / ١١٦٣م) ^١.

أهم علماء المذهب الشافعي:

"أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي" كان أحد الأئمة النابيين، انتشر علمه في "غزة" و "خراسان"، وكان من المجاهدين في سبيل الله، توفي سنة (٣٨٩هـ / ٩٩٨م) ^٢. "أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الإسفرايني (ت ٤٠٦هـ / ١٠١٥م)، من أهم فقهاء المذهب الشافعي في عصره، انتهت إليه رئاسة مذهب الشافعي في زمانه، كان يتوسط بين الخليفة "القادر بالله" (٣٨١: ٤٢٢هـ / ٩٩١: ١٠٣٠م) وبين السلطان "محمود" ^٣. كان أحد أئمة وقته، وقيل عنه أنه أحد الذين بعثوا على رأس كل مائة عام ليجدد لهذه الأمة دينها، وكان يحضر مجلسه حوالي سبعمائة فقيه، وله تعليقه ^٤ في نحو خمسين مجلداً، وله في المذهب "التعليقة الكبرى" و "كتاب البستان" ^٥.

^١ - الداودي: طبقات المفسرين، ج ٢، ص ٢٩١، ٢٩٢.

^٢ - سامية مصطفى محمد: دور سلاطين غزة في نشر الإسلام في الهند، ص ١٨٦.

^٣ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٣٩.

^٤ - كان الفعل علق عندما يستعمل معه حرف الجر "على" أو "عن" يقال عن الطالب الذي يدون ملاحظات شيخه في درس الفقه، وكان دفتر الملاحظات "يسمي" التعليقة"، وهو اصطلاح كان يستعمل أيضاً للدلالة على ملاحظات المدرس نفسه على الدرس ومنهج تدريسه، أما الفعل "يلق" فيستعمل بحسب النص الذي ورد فيه بمعنى "يسجل، يدون" يكتب ملاحظات، يدون محضر،"، أما عبارة "له عنه تعليقه" إشارة إلى أن الفقيه عندما كان طالباً كتب تعليقاً بسند من أستاذه في الفقه، مبنيًا على أساس دروسه أو كتبه، وكانت كتابة التعليق جزءاً أساسياً من تعليم الفقه. وعلى ذلك تكون التعليقة من إنتاج الأستاذ أو الطالب، ففي حالة الأستاذ تكون عبارة عن مجموعة من مذكرات الدروس التي يعدها لاستعماله الشخصي في تدريس مقرره الدراسي، أو قد تكون مصنفاً كاملاً يمكن أن يستعمله غيره من مدرسي الفقه، أما إذا كانت من إنتاج الطالب فهي عبارة عن مجموعة من الملاحظات التي دونها من دروس أستاذه، فيدرسها ثم يعرضها على أستاذه لكي يمتحنه فيها بغرض ترقية إلى مرتبة أعلى، وقد تنتهي إلى مشروع تأليف يستهدف فيه الطالب إخراج مصنفاً كاملاً يكون بمثابة أول إصدار له. جورج المقدسي: نشأة الكليات، ص ١٣١، ١٣٢.

^٥ - الصفدي: المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٣٤.

"أحمد بن محمد المتكوري" الفقيه الشافعي، كان من مشاهير علماء عصره، لذلك أرسله السلطان "مسعود بن محمود" سنة (٤٢٣هـ / ١٠٣١م) إلى الخليفة العباسي "القائم بأمر الله" (٤٦٧: ٤٢٢هـ / ١٠٣٠: ١٠٧٤م) معزياً له في والده الخليفة "القادر بالله"¹.

"أبو سريج إسماعيل بن أحمد بن الحسن الشاشي المعروف بالنقاضي" كان من العلماء الزهاد السائرين في الآفاق على سيرة السلف، تفقه على الشيخ أبي خلف الطبري وطبقته، صنف تعليقه عن "أبي خلف" وفرغ منها في مدينة "غزة" سنة (٤٣٤هـ / ١٠٤٢م)².

الإمام العلامة "أبو بكر محمد بن علي بن علي بن حامد الشاشي" (ت ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) شيخ الشافعية، صاحب الطريقة المشهورة في الجدل، تفقه ببلاده علي "أبي بكر السنجي" ثم سافر إلى مدينة "غزة"، فارتفع شأنه فيها وتفقّه عليه العديد من أهل "غزة"، وصنف بها العديد من المؤلفات ثم استدعاه الوزير "نظام الملك" للتدريس بنظامية هراة³، تفقه عليه في "غزة" "الفضل بن أحمد بن محمد بن أبي وقاص الزهري المعروف بالبصري"، وأقام مدة في مدينة "غزة" ثم سافر إلى مصر⁴.

"أبو المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد الروياني" الفقيه الشافعي (ت ٥٠٢هـ / ١١٠٨م)، من رؤوس الأفاضل في أيامه مذهباً وأصولاً وخلفاً، ذهب إلى "غزة" ونيسابور، ولقي القبول التام في تلك الديار، صنف العديد من الكتب من أهمها "بحر المذهب" وهو من أطول كتب الشافعية، وكتاب "مناصيص الإمام الشافعي"،

¹- ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٢٠٥.

²- الأسنوي: طبقات الشافعية، تحقيق كمال يوسف الحوت، ج ٢، بغداد، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، ص ٢٧٤.

³- السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ١٩٠. الذهبي: العبر، ج ٢، ص ٣٤٩، ٣٥٠.

⁴- السبكي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٠٤. الأسنوي: المصدر نفسه والجزء، ص ١٤.

وكتاب "الكافي"، وكتاب "حلية المؤمن"، وصنف في الأصول والخلاف، وروى الحديث عن خلق كثير في بلاد متفرقة^١.

"أبو الفتح أسعد بن أبي نصر بن أبي الفضل الميهني" (ت ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م) كان إماماً مشهوراً في الفقه والخلاف، وله في الخلاف تعليقه مشهورة، تفقه "بمرو" ورحل إلى مدينة "غزة"، واشتهر بها وشاع فضله، وتفقه عليه العديد من أبناء مدينة "غزة"، وولي نظامية بغداد مرتين^٢. تميز بحده القريحة والذكاء والفطنة، تفقه على أبي المظفر السمعاني، وأخذ الأصول عن أبي عبد الله الغزاوي، وقد وجه رسولاً من جهة السلطان إلى مرو ثم توجه إلى بغداد ثم إلى همدان وتوفي فيها^٣.

"أبو الفتوح عبد الواحد بن الحسن بن محمد الباقرحى" (ت ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م)، فقيه أديب من أولاد المحدثين، تفقه علي "الكنيا الهراسي" ببغداد، وعلي "أبي حامد الغزالي" و"أبي نصر القشيري" بنيسابور، درس بنظامية بغداد إلى أن جاء "أسعد الميهني" فعزل، واستقر مكانه في النظامية، ثم توجه إلى "غزة" وتوفي بها^٤. بات ليلة مفكراً في قلة حظه من الدنيا، فرأى قائلاً يقول له اسمع يا شيخ:-

أقسمت بالبيت العتيق وركنه
ما العيش في المال الكثير وجمعه
والطائفين ومُنزّل القرآن
بل في الكفاف وصحة الأبدان^٥

^١ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٩٩. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٥، ص ٦٣. ابن قاضي شهبه: طبقات الفقهاء الشافعية، ج ١، ص ٢٨٨.

^٢ - السبكي: المصدر نفسه، ج ٧، ص ٤٢. ابن خلكان: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٧، ٢٠٨. ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٨٠. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٦٣٣..

^٣ - ابن كثير: طبقات الفقهاء الشافعية، ج ٢، ص ٥٦٦.

^٤ - السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٧، ص ٢٠٤، ٢٠٥. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ١٢٥.

^٥ - الأسنوي: طبقات الشافعية، ج ١، ص ١٢٤.

"أحمد بن الحسن بن علي بن سدار بن يوسف بن يعقوب الدماوندي الباركني اليوسفي" فقيهاً عالمًا فاضلاً زاهداً ورعاً كثير الحفظ متواضعاً، ذكر أنه من أولاد القاضي "أبي يوسف" وله بيت مشهور بالعراق، سافر إلى "غزة" والهند وأقام بها مدة، وصحب كبار الفقهاء، وكان من جملة شيوخ "السمعاني"، وتوفي في "مرو" سنة (٥٥٩هـ / ١١٦٣م)¹.

أتباع المذهب المالكي:

ومن أهم من زار "غزة" من علماء المالكية "أبو عبد الله محمد بن أبي الفرج المالكي" المعروف "بالزكي المغربي" من أهل صقلية، وله رحلة شملت العراق وخراسان و"غزة" والهند، توفي بأصبهان سنة (٥١٠هـ / ١١١٦م)².

علم أصول الفقه

هو القواعد التي يتوصل بها المجتهد إلى استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من الأدلة الإجمالية اليقينية (والأدلة هي الكتاب والسنة والإجماع)³. وعرفه البعض بأن أصل كل شيء هو ما يستند لتحقيق ذلك الشيء إليه، فأصول الفقه هي أدلة الفقه وجهات دلائلها على الأحكام الشرعية، وكيفية حال المستدل بها من جهة الجملة لا من جهة التفصيل بخلاف الأدلة الخاصة المستعملة في أحاد المسائل الخاصة⁴، وقد عده "ابن خلدون" من أعظم

¹- القرشي: الجواهر المضيئة، ج ١، ص ١٦٠. ابن قاضي شهبه: طبقات الفقهاء الشافعية، ج ١، ص ٢٥٤.

²- ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩، ص ١٩٠.

³- الغزالي: المستصفي من علم الأصول، ج ١، ص ٣٦. ابن رشيق: لباب المحصول في علم الأصول، تحقيق محمد غزالي عمر جابى، ج ١، الإمارات، ٢٠٠١ م، ص ١٩٣. طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة، ج ٢، ص ٥٣.

⁴- الآمدى: الإحكام في أصول الأحكام، ج ١، ص ٨. عبد القادر الدمشقي: نزهة الخاطر العاطر، شرح كتاب روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل لشيخ الإسلام موفق الدين أبي محمد المقدسى، ج ١، (د. ت)، ص ٢٠، ٢١. وبذلك هناك فرق بين الفقه وأصوله، فالأصول هي الوقوف على أدلة الأحكام من كتاب وسنة وإجماع وقياس وغير ذلك، وعلى معرفة وجوه دلالة ذلك

العلوم الشرعية وأجلها قدرًا وأكثرها فائدة^١. وعلم الأصول مستمد من عدة علوم متفرقة منها: علم الكلام، وعلم اللغة العربية، وعلم الحديث^٢. وغاية علم الأصول الوصول إلى معرفة الأحكام الشرعية التي هي مناط السعادة الدنيوية والأخروية^٣.

لم يكن علم الأصول مستقلاً عن الفقه في البداية، ومن خلال نمو علم الفقه واتساع أفق التفكير الفقهي أخذت الخيوط العامة والعناصر المشتركة في عملية الاستنباط تبدو وتتكشف وأخذ الممارسون للعمل الفقهي يلاحظون اشتراك عمليات الاستنباط في عناصر عامة لا يمكن استخراج الحكم الشرعي بدونها، وكان ذلك إيذاناً بمولد علم الأصول واتجاه العقلية الفقهية اتجاهًا أصوليًا، فانفصل علم الأصول عن علم الفقه في البحث والتصنيف^٤.

وأول من دون أصول الفقه هو الإمام "محمد بن إدريس الشافعي"، وصنف فيه كتاب "الرسالة"، والذي تكلم فيه عن الأوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس، وقرر أن أدلة الأحكام هي الكتاب والسنة والإجماع ثم القياس على واحد منها^٥.

على الأحكام من حيث الجملة لا من حيث التفصيل مثل الأمر للوجوب والنهي للتحريم، بخلاف الفقه فإنه يتعلق بمعرفة الأحكام على وجهها التفصيلي. أمير عبد العزيز: أصول الفقه الإسلامي، ج ١، القاهرة، دار السلام للطباعة، ١٩٩٧م، ص ٢٥.

^١ - ابن خلدون: المقدمة، ج ٣، ص ٩٦٠.

^٢ - الجويني: البرهان في أصول الفقه، ص ٨٤. الآمدي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٩.

^٣ - الآمدي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.

^٤ - محمد باقر الصدر: دروس في علم الأصول، ج ١، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٤٩. عتيق أحمد البستوى: دور العلماء الأحناف في تدوين أصول الفقه وأهم كتبهم الأصولية، مجلة الدراسات الإسلامية، العددان الأول والثاني، المجلد ٣٧، ٢٠٠٢م، ص ١٣٩.

^٥ - حسين حامد حسان: أصول الفقه، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٠م، ص ٢٣، ٢٤. أمير عبد العزيز: أصول الفقه الإسلامي، ج ١، ص ١٥.

ثم تبعه بالتأليف في أصول الفقه جماعة من فقهاء الحنفية ونبغوا في علم أصول الفقه، وتطور بجهودهم وبلغ ذروة كماله وازدهاره في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وقد ظهر في تلك الفترة العديد من المؤلفات الأصولية، ومن علماء "غزة" في علم الأصول:

"أبو المعالي عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن حمدوية الحلواني المروزي (ت ٥٣٩هـ / ١١٤٤م) كان فقيهاً فاضلاً توجه إلى "غزة" وأقام بها مدة فحصل خلال تلك الفترة علم الأصول، ثم رجع إلى مرو وبنى رباطاً للمحدثين، وأوقف فيه كتب كثيرة اشتراها من "غزة"^١.

"أحمد بن محمد بن محمود بن سعيد الغزنوي" (ت ٥٩٣هـ / ١١٩٦م) فقيه أصولي حنفي ولد بمدينة "غزة"، تفقه على "أحمد بن يوسف الحسيني العلوي"، ذاع صيته حتي بلغ درجة الرياسة في المذهب الحنفي، رحل في طلب العلم، حتي وصل إلي حلب بالشام، وصنف كتب عديدة منها كتاب "روضة اختلاف العلماء"، ومقدمة في الفقه عرفت "بالغزنوية"، وكتاب "في أصول الفقه"، وكتاب "روضة المتكلمين في أصول الدين"، وكتاب "المنتقى من روضة المتكلمين"، وكتاب "البدايع في الفقه"^٢. وألف كتاب "روضة الشهاب في بيان الألفاظ النبوية والآداب الشرعية"^٣. و"أبو حفص عمر بن محمد الغزنوي" وله تقدم في أصول الفقه^٤.

^١ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٦، ص ٥٠٣.

^٢ - ابن قطلوبغا: تاج التراجم في طبقات الحنفية، ص ١٠. طاش كبرى زادة: طبقات الفقهاء، ص ١٠٥. على أكبر دهنخدا: لغت نامه، ج ٢٧، ص ٢١٢.

^٣ - بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، القسم الثالث (٥، ٦)، ص ٥٥٦.

^٤ - القرشي: الجواهر المضيئة، ج ٢، ص ٦٦٩.

رابعاً: علم التصوف

تكلم الناس في تحقيق هذا الاسم كثيراً، ذلك لأن التصوف لم يكن له في يوم من الأيام طريقة منتظمة محدودة أو معينة من الناحية النظرية أو العملية بل كان له في كل عصر مفهوم خاص، علي أنه تعرض لتعريف التصوف العشرات من علماء الصوفية أو ممن كتب عنهم، فهناك عدة آراء تدور حول التسمية:-

أولاً: أن التصوف نسبة إلى أهل الصُّفَّة، ويقصد بهم الفقراء ممن لا بيوت لهم، والذين كانوا يجلسون علي الصفة، وهي دكة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم "بالمدينة" وينقطعون للعبادة^١، أو لأن اسمهم قريب من اسم أهل صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصافهم قريبة منهم^٢.

ثانياً: أن الصوفية ينتسبون إلى الصفاء، وهذه الصفة عرفت عنهم فهم يكونون دائماً في حالة صفاء قلب لله وإخلاص العبادة، فالصوفي هو أحد خاصة الله الذين طهر الله قلوبهم من مباهج الدنيا^٣.

ثالثاً: أن الصوفية نسبة إلي الصوف، فيقال تصوف فلان أى لبس الصوف، لأن لبس الصوف كان علامة علي الزهد في الدنيا، وعدم الإغراق في الترف^١، ولعل هذا التعريف

^١- الخطيب الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين ومعه كتاب المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين لطفه عبد الرؤوف ومصطفى الهواري، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ١١٠. ناجي معروف: تاريخ الحضارة العربية، ص ١٨٩. عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، بيروت، ١٩٦٢م، ص ٣٧٧.

^٢- السبكي: معيد النعم، ص ١١٩، ١٢٠.

^٣- الأصفهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج ١، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٢٤: ١٧. رفعت عبد العظيم محمود: نظرية العشق عند الصوفية الفرس منذ النصف الأول من القرن الخامس الهجري حتى النصف الأول من القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٧. رينولد نيكولسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة أبو العلا العفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٤٧م، ص ٦٦.

هو الأرجح لأن الصوف كان لباس الأنبياء ورمز الأولياء والخاصة كما يظهر من أخبار الصوفية وآثارهم.

ويقول السبكي عن الصوفية: "إنهم أهل الله سبحانه وتعالى وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم وينزل الغيث بدعائهم"^٢. أما "البيروني" فيعرف الصوفية بقوله "الصوفية هم الحكماء، فإن سوف باليونانية الحكمة، وبها سمى الفيلسوف "بيلا سوبا" أى محب الحكمة، ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سمو باسمهم ولم يعرف اللقب بعضهم فنسبهم للتوكل إلى الصفة وأنهم أصحابها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، ثم صحف بعد ذلك فصور من صوف التيوس، وعدل أبو الفتح البستي عن ذلك أحسن عدول في قوله:

قدماً وظنوه مشتقاً من الصوف

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا

صافي فصوص حتى لقب الصوفي^٣

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى

ومهما يكن من الغموض الذي يحيط بأصل كلمة التصوف، فإن من الظاهر أن استعمالها قد شاع آخر القرن الثاني الهجري، أى في عصر الانتقال من دور الزهد إلى دور التصوف الحقيقي، وأنها كانت بظهورها علامة على مرحلة خاصة من مراحل تطور التصوف^٤.

كتب "ابن خلدون" فصلاً مهماً في المقدمة سماه علم التصوف تحدث فيه عن أهمية التصوف ونشأته، وكذا منهجه وقواعده، وقد لخص لنا في هذا الفصل كل ما سبقه من آراء عند مؤرخي التصوف القدامى إلى جانب موقفه الخاص من الصوفية، فيقول عن علم

^١ - ابن خلدون: المقدمة، ج ٣، ص ٩٨٩. ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد على أبو درة، ج ٢، بيروت، دار الجيل، (د.ت)، ص ٢١٥. سليم نيسارى: تاريخ أدبيات إيران بعد إز إسلام، ص ٥١.

^٢ - السبكي: المصدر نفسه، ص ١٢٠.

^٣ - البيروني: تحقيق ما للهند، ص ٢٧، ٢٨.

^٤ - رينولد نيكلسون: المرجع نفسه، ص ٦٨.

التصوف: "هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عامًا في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثانى الهجري وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة"^١.

أما التصوف من وجهة النظر الصوفية فهو ذلك العلم اللامحدود والذي تعد كافة العلوم روافد تصب فيه، وأهم أهداف الصوفية هو الخلاص من النفس ونسيانها ومحوها في حب الحق سبحانه وعشقه وصحبته^٢، وعلى ذلك فليس للتصوف تعريف واحد، فكل صوفي يضع للتصوف تعريفًا يتفق مع الاتجاه الذى يتجهه هو ومع الدرجة التى وصل إليها في ذلك الاتجاه.

وللصوفية عدة طرق مكونة من المقامات السبع وهى التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا، وهذه المقامات هى جماع التربية الخلقية والزهدية للصوفى، وهى مكاسب تحصل ببذل المجهود ومكايده الهوى ووقوفه دون تحقيق رغبات النفس وشهواتها والخلوولة بينها وبين رغباتها^٣، أى أن الصوفية حركة دينية أخذت نزعة روحية تميل بالإنسان من العالم المادى إلى العالم الروحى، فهم دون شك يسرون في صدق وأمانة

^١ - ابن خلدون: المقدمة، ج ٣، ص ٩٨٩.

^٢ - رفعت عبد العظيم: نظرية العشق عند الصوفية الفرس، ص ٨. عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٨٥.

^٣ - حسن الشناوى: التصوف الإسلامى مبدؤه وهدفه ونتيجته، مجلة التصوف الإسلامى، العدد ٢٧٣، ديسمبر ٢٠٠١م، ص ٢٨.

باحثين عن الحقيقة متبعين أسلوب العبادة ونهجاً من الرياضة^١ كي يصلوا من خلالها إلى الحب الإلهي^٢.

مر التصوف كحركة دينية بمراحل مختلفة، فكان الزهد هو المرحلة الأولى في القرنين الأول والثاني الهجريين، وكان أهم صفاته الإحساس الديني العميق والشعور الغامر بالضعف الإنساني والخوف الشديد من الله، والتفويض التام له والخضوع لإرادته، كما لم يكن للصوفية إلى ذلك العهد حياة زهد منظمة داخل الزوايا والأربطة وما إليهما^٣.

وفي أواخر القرن الثاني الهجري تحول الزهد إلى التصوف ونشأ في الإسلام علم جديد مقابل لعلم الفقه، أو بعبارة أدق انقسم علم الشريعة إلى قسمين: علم الفقه الذي يبحث في الأحكام التي تجرى على الجوارح. وعلم التصوف: الذي يبحث في باطن الشريعة وتفهم أسرارها والنظر إلى العبادات، وأثرها في النفوس وما يترتب عليها من أحوال نفسية وفوائد روحية^٤.

أما القرنين الثالث والرابع الهجريين فيمثلان العصر الذهبي للتصوف الإسلامي، فقد وصل التصوف فيها إلى مرحلة النضج فأضحت الوسائل والمفاهيم الصوفية فيها أكثر وضوحاً، وذلك لأن العناصر الجديدة التي بدأت تتسرب إلى الإسلام منذ القرن الثالث الهجري أخذت تنفذ إلى التصوف وتتفاعل معه، وكان نتيجة هذا التفاعل أن تطور مفهوم

^١ - الرياضة: مصطلح صوفي استعمله الصوفية مرادفاً للفظ التربية، وهي عبارة عن تهذيب النفس وتربيتها وتأديبها بقصد الوصول بها إلى مكارم الأخلاق، وهي أهم وسيلة من وسائل التربية لدى الصوفية، وتتم عن طريق ملازمة شيخ من المشايخ للتأديب بأدبه، والتدريب العملي على يديه. أحمد عرفات القاضي: الفكر التربوي عند المسلمين، ص ٩٦.

^٢ - محمد العمادي: خراسان في العصر الغزنوي، ص ٢٧٩.

^٣ - ابن القيسراني: صفوة التصوف، تحقيق غادة المقدم عدرة، دار المنتخب العربي، ١٩٩٥ م، ص ٥٧. رينولد نيكلسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص ٦٩.

^٤ - ابن خلدون: المصدر نفسه والجزء، ص ٩٩١. الكاشاني: اصطلاحات الصوفية، تحقيق عبد الخالق محمود، ط ٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤ م، ص ٩.

التصوف وأصبح شيئاً جديداً لا يقف عند حد الرياضة والمجاهدة، ولا يقنع فيه الإنسان بالمجاهدة إنما تجاوز هذا كله إلى غاية أسمى هي فناء الإنسان عن نفسه وبقاؤه بربه واتحاده به^١.

وتعد تلك المرحلة من أخطر المراحل التي مر بها التصوف، والتي يمكن أن نسميها بمرحلة التصوف الفلسفي، وهو التصوف الذي اتجه فيه أصحابه إلى المزج بين أدواقهم الصوفية وأنظارهم العقلية، وقد تأثروا في ذلك بالتيارات والفلسفات الدخيلة على الإسلام، كالهندية واليونانية والفارسية، ودخلت مفاهيم باطنية من معاني الحلول والاتحاد والوحدة^٢. وبهذا يظهر أن التصوف الذي نشأ نشأة إسلامية في البداية، لم يسلم من التأثيرات الخارجية.

والمأمل في أقوال صوفية تلك الفترة يلمس تحولاً فكرياً طرأ على مفهوم التصوف، وظهرت في أقوالهم أفكاراً جديدة واصطلاحات وتعبيرات خاصة تتعلق بالجانب النظري للتصوف من تحديد معالم الطريق وترتيب المقامات والأحوال. وقد شهد القرن الثالث الهجري بداية الصراع بين الفقهاء والصوفية، ويرجع النزاع بينهما إلى أن أحكام الشريعة في أول عهد الإسلام، كانت تؤخذ بالرواية لا فرق بين عبادات واعتقادات أو معاملات، ثم لم يلبث المسلمون أن بدأوا يناقشون مسائل الدين ويتدارسونها، ويبحثون عن علل الأحكام على نمط علمي، ويدونون ما يتناقشون فيه، وهنا نشأ علم الفقه وأقبل الناس عليه، حتي أن كثيراً من المسلمين كانوا يظنون أن الاشتغال بهذا العلم والعمل به هو الغاية من الدين، ثم ظهر أمر الصوفية وكان لهم رأيهم الخاص فيما يتعلق بالمسائل الدينية والأحكام الشرعية، فكانوا يرون أن الدين أصبح في عرف الفقهاء جملة من رسوم

^١ - المجويزي: كشف المحجوب، ص ٢٨، ٢٩.

^٢ - أبو سعد أحمد الماليني: كتاب الأربعين في شيوخ الصوفية، تحقيق عامر حسن صبري، بيروت، دار البشائر، ١٩٩٧م، ص ٢٢.

وأوضاع لا حياة ولا روحانية فيها، وأن الكمال الديني يكمن في البحث عن المعاني الباطنة للأحكام بالإضافة إلى معانيها الظاهرية^١.

بذلك انقسم علم الشريعة إلى قسمين ظاهر وباطن، وأختص الفقهاء بالظاهر والصوفية بالباطن، وأصبح لكل طائفة من الطائفتين وجهة نظرها الخاصة في ماهية الدين^٢، فكان من الطبيعي حدوث مشاحنات كثيرة بين الفقهاء والصوفية لاختلاف وجهتي نظرهما، فأعلن الفقهاء العداء للصوفية، فتصدوا لبعضهم بالمعارضة، واتهموا البعض الآخر بالكفر والزندقة، وهنا قام الصوفية بالرد على الفقهاء ورفض آرائهم^٣.

وقد أوردت لنا المصادر العديد من الاضطهادات التي لاقاها الصوفية على أيدي العلماء والفقهاء، فكان من فقهاء "غزة" من ينكرون الصوفية ويدعوهم بالجهل، ومنهم القاضي "أبو العلا صاعد" والذي كان يظهر العداء لجميع الصوفية، كذلك "أبو إسحاق الكرامى" زعيم الكرامية، والذي لم يكن يعتقد في هذه الطائفة، ويكن لها العداء^٤. كذلك

^١ - الهجویری: المصدر نفسه، ص ٢٩، ٣٠.

^٢ - محمد مصطفى حلمی: الخصائص الأخلاقية للرياضيات والأذوق الصوفية، مجلد معهد الدراسات الإسلامية، العدد ١، ١٩٥٨م، ص ١٩٧.

^٣ - محمد جلال شرف: التصوف الإسلامى ومدارسه، ص ٢٣. (كان أهل السنة يعلنون العداء للصوفية المتطرفة وخصوصاً يوم أدى المذهب الصوفي بكثير من أصحابه إلى الاستغناء عن الشرائع لزعمهم أنهم يتلقون الأوامر والنواهي من الله مباشرة بعد اتحادهم به ومعرفته بالكشف، كذلك نبذتهم المعتزلة لدعائهم الاتحاد بالله، ولا يتم اتحاد واتصال وحلول إلا في الأجساد ذات الصفات، واعتقاد الصوفيين يؤدي إلى التشبيه، وناهضهم معظم الشيعة مردين "لا رهبانية في الإسلام" وذلك يوم بدأت الصوفية تؤلف جماعات في الزوايا كالرهبان وتفرض لبس الصوف، وأجمع المسلمون على تكفير أصحاب الشعوذات والمجاهدات المصطنعة ودعاة الحلول). عبده الشامى: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية، ص ٤٧٧.

^٤ - محمد بن المنور: أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبى سعيد، ترجمة إسعاد عبد الهادى قنديل، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د.ت)، ص ٨٩.

الوزير "أبو على حسن بن محمد" المعروف باسم "حسنك ميكال" وزير السلطان "محمود الغزنوي"، فإنه لم يكن يَألف أو يعتقد في مشايخ الصوفية وأرباب الرياضة^١.

كان من نتائج هذا التعصب أن أخذ كبار الصوفية يتمسكون أكثر من ذي قبل بالقرآن والحديث والأدلة العقلية، وانشغلوا بالتأليف والتصنيف، ونهضوا للدفاع عن أنفسهم بسلح الكتاب، وبذلك انتشرت الصوفية في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وأخذوا ينظمون أنفسهم في جماعات وفرق لها طرقها الخاصة وشيوخها وسالكوها، وانتشرت المدارس الصوفية والتي كان لكل منها طابع معين، وقد أحصى "الهجویری" الفرق الصوفية أو المدارس الصوفية والتي وجدت في تلك الفترة بحوالى اثنتي عشرة فرقة^٢.

أما بالنسبة للصوفية القرنين الخامس والسادس الهجريين، فقد ظهر في تلك الفترة اتجاهان متميزان، أحدهما سنى يتقيد أصحابه فيه بالكتاب والسنة، والآخر شبه فلسفى ينزع أصحابه فيه إلى الشطحات، وينطلقون من حال الفناء إلى إعلان الاتحاد والحلول، وقد ساد الاتجاه الأول في القرن الخامس الهجرى بينما ساد الاتجاه الثانى فى القرن السادس الهجرى^٣.

ففى القرن الخامس الهجرى لم يكن للصوفية صلة بالاصطلاحات الفلسفية والكلامية، ولم يدخل كثير من الأبحاث المتعلقة بالفلسفة وعلم الكلام حوزة التصوف، فعقائد الصوفية وآرائهم لم تستند حتى ذلك الوقت إلا إلى القرآن والحديث وشهود أولياء الصوفية وروايات المشايخ، أخذت تتجه فى القرن السادس إلى التعليقات الفلسفية والتحقيقات الكلامية^٤.

^١ - ميرخواند: روضة الصفاء، ص ١٥٩.

^٢ - الهجویری: كشف المحجوب، ص ٣٤٣.

^٣ - الكاشانى: اصطلاحات الصوفية، ص ٩.

^٤ - قاسم غنى: تاريخ التصوف فى الإسلام، ترجمة صادق نشأت، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٧٠م، ص ٦٨٩، ٦٩٠.

وأهم ما يميز صوفية القرن الخامس الهجري أنهم اختاروا العزلة والبعد عن المجادلات المذهبية والمخاضات التي كانت تدور رحاها بين الفرق المختلفة، وأنهمكوا في أبحاثهم والتي تميزت بالتنوع والنضوج^١، لذلك كانوا موضعاً لاحترام وتكريم الملوك والأمراء ومن مجموع الحكايات التي وصلتنا خلال تواريخ ذلك الوقت من قبيل ذهاب السلطان "محمود الغزنوي" (٤٢١: ٣٨٨ هـ / ١٠٣٠: ٩٩٨ م) إبان سيره إلى مدينة "الرى" إلى خانقاه الشيخ "أبي الحسن الخرقاني" (ت ٤٢٥ هـ / ١٠٣٣ م) شيخ عصره، والذي اشتهر بكراماته الظاهرة^٢.

وهذا السلطان "مودود بن مسعود" (٤٣٢: ٤٤١ هـ / ١٠٤٨: ١٠٤٠ م) عندما أرسل إليه الشيخ "أبي سعيد بن أبي الخير" أحد مريديه، وطلب منه إرسال مبلغ وقدره ثلاثة آلاف دينار ليسدد به دين قد اقترضه من أجل الصوفية، فما كان من السلطان "مودود" إلا وأرسل إليه مبلغ خمسة آلاف دينار^٣.

ويرجع السبب في اهتمام وعناية معظم الطبقات حتى الأمراء والسلاطين بالصوفية، هو أن بعض علماء الدين والفقهاء والمحدثين في ذلك العصر قد انشغلوا بالشئون السياسية والإدارية، أي بتقليدهم مناصب القضاء والتدريس وتولى أمور الأوقاف والوعظ والحسبة والإمامة، مما كان يدخلهم في زمرة موظفي الدواوين، بينما الصوفية كانوا في منأى عن ذلك وعدم اهتمامهم بأصحاب الحكم والجاه، أضفى عليهم ذلك أهمية خاصة وأظهرهم بمظهر العظمة المحاطة بالأسرار الغامضة، بالإضافة إلى ذلك فإنهم لم

^١ - المرجع السابق، ص ٦٦٧.

^٢ - خواندمير: دستور الوزراء، ص ٢٣٧. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٧، ص ٤٢٢. السمعاني: الأنساب، ج ١، ص ٣٤٧. استاد خليلي: سلطنة غزنويان، ص ١٤٣.

^٣ - محمد بن المنور: أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد، ص ٤٠٤: ٤٠٧.

يتورطوا في المنازعات والمجادلات التي كانت تدور بين المذاهب المختلفة بل كانوا يعاملون كافة الفرق بسلام ووثام وكانوا يتوددون إلى الجميع على السواء^١.

كان التصوف هو المصعب الذي التقت فيه معظم روافد الفكر في هذه الفترة فوجدنا بين صفوف الصوفية من هو سلفى يلتزم بظاهر النص، ولا ينجح إلى التأويل، كما وجد في صفوفهم كثيرًا من السنة الذين اعتمدوا على العقل والنقل، كما وجد بين صفوفهم من ينتمى إلى الشيعة، ذلك لأن التصوف لم يكن يمثل فرقة أو مذهب بعينه، ومن ثم لم يكن من العجيب أن يتسع لمعظم المذاهب والفرق لأنه نزعة روحية سلوكية لا تعرف حدود مكانية ولا تختص بها فرقة مذهبية دون أخرى^٢.

حفلت مدينة "غزة" بالعديد من الشخصيات الصوفية الفذة والمذاهب الروحية النظرية والعملية والتي سوف نتعرف عليها من خلال دورها في تلك الفترة، ولعل أهم تلك الشخصيات:

"أبو الريحان البيروني" (ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) الذي كان مولعًا بالتصوف، ويعمل على نشر تعاليمه في البلاد التي يقوم فيها بأسفاره ومنها الهند، وقد عمل على ربط الفلسفة الهندية بالتصوف^٣، وأطال البيروني في وصف الفلسفة الدينية للهند، وقارن بين عقائد الهند والإسلام والصوفية والنصرانية والفلسفة اليونانية، ونقل إلى العربية كتابين أحدهما في المبادئ وصفة الموجودات، واسمه "سانك"، والآخر في تخليص النفس من رباط البدن ويعرف "ببياتنجل" وفيهما غالبية أصول الديانة الهندية^٤.

^١ - قاسم غنى: تاريخ التصوف في الإسلام، ص ٦٦٧.

^٢ - عبد المجيد أبو الفتوح بدوى: التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى في المشرق الإسلامى من القرن الخامس الهجرى حتى سقوط بغداد، ط ٢، دارالوفاء للطباعة، ١٩٨٨ م، ص ٥٢.

^٣ - محمد بن أبى صلاح: البيرونى يسيح في الهند، ص ٣٧.

^٤ - البيرونى: تحقيق ما للهند، ص ١٦.

"أبو الحسن علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي الهجویری الغزنوی" (ت ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م) ولد بمدينة غزنة إما في أواخر القرن الرابع الهجري أو أوائل القرن الخامس الهجري، فتاريخ ولادته لم يرد في أي مصدر بصورة مؤكدة، واستمد لقبه الجلابي والهجویری نسبة إلى جلاب وهجویر وهما محلتان من توابع غزنة، وقد نشأ في أسرة متدينة فكان والده على قدر كبير من التصوف والعرفان، ولهذا كان أبوه المعلم الأول له، ومنه أخذ الكثير من السلوك الطيب، صحب أباه خلال فترة الطفولة فتعرف على مبادئ التصوف في سن مبكرة، وتشرب روحه منذ الصغر، وكان لذلك أثره الكبير في اتجاهه إلى التصوف، ثم بعد ذلك بدأ يتصل بمشايخ الصوفية ويتعلم منهم ويستمع إلى نصائحهم وإرشاداتهم^١، ثم سافر الهجویری إلى الهند وأقام بمدينة لاهور^٢.

يعد "الهجویری" أول من ألف عن التصوف باللغة الفارسية، فكان المصدر الأول الذي استلهم منه المؤلفون بعده الكثير من الأخبار والمعاني التي تحدثوا عنها، وقد ذكرت المصادر أن الهجویری ألف كتبًا عديدة منها:

١. "الديوان" وهو مجموعة من الأشعار كتبها الهجویری وهو صغير السن، وفقد أثناء حياته
٢. "منهاج الدين" والذي فقد هو أيضا في حياة الهجویری، وموضوعه كان يرتبط بالتصوف ويبدو أن هذا الكتاب كان على هيئة تذكرة، فقد ذكر الهجویری أنه تحدث فيه عن مناقب أهل الصفة وشرح أحوالهم كل على حدة
٣. "كشف الفناء والبقاء" تحدث فيه عن الفناء والبقاء وعن اختلاف الصوفية في الفقر والصفوة

^١ - الهجویری: كشف المحجوب، ص ٤٣: ٤٥، ٥١.

^٢ - Arberry: Classical Persian Literature ,p٢٠.

٤. "كتاب في شرح كلام الحلاج" كان "الهجویری" في شبابه مفتوناً بالحلاج، وقرأ كثيراً من كتبه، وقد دفعه إعجابه بالحلاج إلى تأليف ذلك الكتاب في شرح كلامه
٥. "البيان لأهل العيان" تعرض فيه لشرح بعض الرموز الصوفية
٦. "بحرالقلوب" ألف هذا الكتاب بعد كتاب "البيان لأهل العيان" وطرق فيه نفس الموضوع فشرح الرموز والمصطلحات الصوفية، وإن كان قد سلك في ذلك مسلكاً أكثر تفصيلاً وإشباعاً من كتاب البيان
٧. "أسرار الخرق والملونات" تحدث فيه عن لبس المرقعة، وذكر أنه يلزم لكل مريد نسخة منه
٨. "الإيمان" تحدث فيه عن مدلول الإيمان في الشريعة، وعند المعتزلة والخوارج وغيرهم
٩. "الرعاية بحقوق الله تعالى" تحدث فيه عن مبدأ التوحيد عند الموحدين، وأشار إلى آراء المخالفين من الوثنيين وغيرهم^١
- ضاعت معظم هذه الكتب، ولم يصل إلينا إلا كتاب "كشف المحجوب"، ويعد هذا الكتاب باكورة المؤلفات الصوفية في اللغة الفارسية^٢، فهو كتاب قيم يقوم على أساس علمي ومنطقي ومنهج سليم، فهو مصدر له أهميته، وقلما توجد دراسة في التصوف الإسلامي قام بها المستشرقون، تخلو من الإفادة من هذا الكتاب والإشادة به.
- بدأ "الهجویری" تأليف كتابه هذا حوالي عام (٤٣٥هـ / ١٠٤٣م) وأتمه حوالي عام (٤٤٢هـ / ١٠٥٠م)^٣. ويرى "الهجویری" أن اسم كشف المحجوب أنسب الأسماء

^١. الهجویری: المصدر نفسه، ص ٩٩: ١٠٢.

^٢. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در ایران، جلد دوم، ص ٨٩٢.

^٣. الهجویری: المصدر نفسه، ص ١٢١.

لكتابته لأنه يعبر تعبيرًا صادقًا عما يحتويه الكتاب، فيقول "ولما كان هذا الكتاب في بيان طريق الحق، وكشف حجب البشرية فإنه لا يناسبه غير هذا الاسم"^١.

أما موضوع الكتاب فهو عبارة عن منهج كامل لعلم التصوف، أصوله وفروعه وآدابه ومعاملاته، ليثبت لعلماء الظاهر ممن ينكرون هذا العلم ويتهمون الصوفية بالجهل أن لعلم التصوف أصولًا ثابتة تقوم على أسس علمية سليمة، إلى جانب استنادها إلى الناحية الروحية.

أما أقسام الكتاب فيمكن تقسيمه من الناحية الموضوعية إلى الأقسام الآتية:-

أولاً : أبواب تتناول الأصول الصوفية، وهى:

باب الفقر، باب التصوف، باب اختلافهم فى الفقر والصفوة.

ثانيًا: أبواب تعالج المسائل الفرعية، وهى:

باب لبس المرقعة، باب بيان الملامة.

ثالثًا: قسم خاص بتراجم الشيوخ.

رابعًا: قسم خاص بالفرق الصوفية.

خامسًا: قسم خاص بالعقائد الدينية، ويتحدث فيه عن:

معرفة الله تعالى، التوحيد، الإيمان.

سادسًا: قسم خاص بالعبادات ويتكلم في:

الطهارة، الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج.

سابعًا: أقسام تتحدث عن آداب الصوفية ورموزهم ورسومهم^٢.

^١.الهجویری: كشف المحجوب، ص ١١٠، ١١١.

^٢.المصدر السابق، ص ١١٤.

وترجع أهمية كتاب "كشف المحجوب" بين كتب التصوف الإسلامى عامة إلى ما يلي: أولاً: من حيث المنهج العام أنه عالج الأصول المتعلقة بالتصوف، ثم تعرض لتراجم شيوخ التصوف، وقد حذى في ذلك حذو "القشيري"^١، إلا إنه زاد علي ذلك بأن سلك مسلك المعلم فتناول كل شئ بالإيضاح والتفسير، ولم يقف قط موقف الرواية فقط، فقد بدت شخصيته واضحة في كتابه نتيجة للمنهج العلمى السليم الذى اختطه لنفسه، فهو عندما يعرض لمادة من المواد يدرس عمومًا الآراء السائدة بالنسبة للموضوع الذى يبحثه، ويفند هذه الآراء إذا اقتضى الأمر، ثم يدلى برأيه الخاص الذى توصل إليه من خلال خبرته العلمية وتجاربه الشخصية.

ثانيًا: من حيث المميزات التي أنفرد بها الكتاب فقد أنفرد بميزة ضخمة لم يسبقه إليها كتاب آخر، وهذه الميزة تتمثل في الباب الخاص بفرق الصوفية والتي قسمها مؤلفه إلى اثنتى عشر فرقة، نسب كل منها إلى مؤسسها وشرح المذهب الخاص بها، وبذلك يكون "الهجویری" أول من قسم الصوفية إلى هذه الفرق، فلم يرد في أى من كتب التصوف السابقة علي "كشف المحجوب" إشارة إلى هذا التقسيم، وأخذ عنه كل من جاء بعده، وكتب عن فرق الصوفية^٢.

والواقع أن "الهجویری" بهذا الكتاب يعتبر من الرواد الأوائل في علم التصوف، وجهوده لا تنكر في هذا المجال فقد استطاع إعادة التصوف إلى سيرته الأولى وتنقيته مما

^١- أبو القاسم القشيري (ت ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م): هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري مؤلف "الرسالة" المشهورة عن الصوفية، تعلم مقرر الفقه الذى وضعه "أبو بكر بن أبى بكر الطوسى" (ت ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م)، ثم درس علم الكلام علي "أبى بكر بن فورك" (ت ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م) إلى أن برع فيه ثم تقدم في دراسة علم الكلام مع "أبى إسحاق الإسفرايينى" (ت ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م)، وجمع بين أسلوبى هذين المتكلمين، وكان "القشيري" علامة في حقول المعرفة المختلفة، كالفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والتصوف، ومن كتبه "الرسالة القشيرية" و"لطائف الإشارات" و"التيسير في التفسير". جورج المقدسى: نشأة الكليات، ص ٩٥.

^٢- الهجویری: كشف المحجوب، ص ١٨٢، ١٨٣.

علق به من شوائب، فقد ألف كتابه في الوقت الذي كان ينظر فيه إلى التصوف علي أنه زندقة وخروج علي تعاليم الكتاب والسنة، وقد كانت تلك النظرة ناشئة نتيجة امتزاج بعض التعاليم الصوفية ببعض العقائد الشيعية، لذلك نجد "الهجويري" في كتابه يتأسف علي اختفاء علم التصوف في زمنه، وأنه لم يبق منه إلا صورة مشوهة مخالفة للأصل. هذه الصورة المشوهة هي التي دفعته لأن يرسم في كتابه صورة واضحة للتصوف يبين فيها أصوله النظرية والعملية، ويؤيد كل أصل منها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويقرن فيها بين الشريعة والحقيقة، ويوائم بين التكاليف الشرعية والمعاني الصوفية التي تنطوي عليها، ويتصدى لآراء المنحرفين والأدعياء الذين أساءوا إلي التصوف والصوفية^١.

ومن صوفية "غزنة" أيضا "عبد الرزاق الغزنوي الصوفي" شيخ رباط عتاب، توفي سنة (٤٩٣هـ / ١٠٩٩م)^٢. و"أبو زكريا يحيى بن الحسين بن سعيد الغزنوي الصوفي" (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م) سافر من "غزنة" إلي خراسان والعراق والشام، وسمع بسجستان وكرمان، وروى عنه "عبد الكريم السمعاني"^٣.

وأيضا "أبو الفضل محمود بن أحمد بن عبد الرحمن الغزنوي"، صاحب "أبا الفتوح أحمد بن محمد الغزالي" وأخذ عنه علم الوعظ، توجه إلى "بغداد" سنة (٥٥٧هـ / ١١٦١م)، وعقد مجلسا للوعظ بجامع القصر ثم انتقل "لواسط" وسكنها حتي وفاته سنة (٥٦٣هـ / ١١٦٧م) ودفن في مدرسته "بمحلة الوراقين"^٤.

"أبو المجد مجدود بن آدم" المعروف "بسنائي الغزنوي" (ت ٥٤٥هـ / ١١٥٠م) من شعراء الصوفية العظام^٥، ولد في مدينة "غزنة"، وأمضي صدر شبابه في هذه المدينة وعمل

^١. المصدر السابق، ص ٣٥.

^٢. ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣٠. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٧١.

^٣. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٧، ص ٣٤٢.

^٤. القرشي: الجواهر المضيئة، ج ٣، ص ٤٣٠.

^٥. اسفزاری: روضات الجنات في أوصاف مدينة هرات، ص ٣٦١. (تاريخ وفاة "سنائي" مختلف فيه، فهناك من يجعل وفاته سنة (٥٢٦هـ / ١١٣١م) ومن يرى أنها كانت سنة (٥٤٥هـ / ١١٥٠م)، ومن يرجح

في بلاط الغزنويين ثم غادر "غزنة" إلى خراسان حيث كانت أرضاً خصبة للحركة الصوفية، فقضى فترة طويلة من حياته في مدنها بلخ وسرخس وهراة ونيسابور، واندمج في حلقات الدراويش وصاحب رؤساء الصوفية، ومنذ ذلك العهد أغمض سنائي عينيه عن العمل في البلاط الغزنوي، واختار العزلة والحج فتوجه إلى مكة ثم رجع إلى غزنة حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته في الإعتكاف والعزلة حتى وفاته بها^١.

ومن أعظم مؤلفات هذا الشاعر منظومته "حديقة الحقيقة وشرعة الطريقة"^٢، والتي تعد من أعظم كتب التصوف التي ألفت بالفارسية، والمنظومة تحتوي على جميع المعارف الإسلامية التي كانت سائدة في عهده، وهذا من وجهة نظر صوفية، ومعظم الأفكار التي تناولها الصوفية بعد "سنائي" توجد أصولها في ذلك الكتاب، كما يعد "سنائي" أول من أرسى دعائم العرفان الإيراني أى التصوف الممتزج بالفكر الفلسفى، وقل أن نجد موضوعاً من الموضوعات التي كانت مثار جدل في عصره دون أن يدلى فيها سنائي برأيه من وجهة نظر صوفية، ومن ثم يثبت "سنائي" أن التصوف في عهده لم يعد مسلكاً فردياً أو انعزالياً بقدر ما هو فكر يستطيع أن يوجه كل العلوم، بل يستطيع أن يتدخل في أدق أمور الحياة، والمنظومة حافلة أيضاً بالحديث عن العقل الكلي والنفس الكلية ونظرية المعرفة والرسول والصحابة^٣.

أنه توفي سنة (٥٣٥هـ / ١١٤٠م). ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٥٥٩. إسعاد عبد الهادى قنديل: فنون الشعر الفارسى، ط ٢، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨١م، ص ٢٠٤.

^١ دولت شاه سمرقندى: تذكرة الشعراء، تصحيح محمد إقبال، ١٩٣٩م، ص ٥٩. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص ٧٣. أحمد أبو المجد هلال: فن الغزل فى الشعر الفارسى، ص ٢٤٣. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٥٥٣. رفعت عبد العظيم محمود: نظرية العشق عند الصوفية الفرس، ص ١٦٣.

^٢ اسفزارى: روضات الجنات فى أوصاف مدينة هرات، ص ٣٦١.

^٣ إبراهيم الدسوقى شتا: التصوف عند الفرس، دار المعارف، (د.ت)، ص ٢٨.

وقد تحدث "سنائي" في منظومة عن التوحيد وكلام الله ونعت الرسول صلى الله عليه وسلم وفضل الصحابة والخلفاء وفضل الإمامين "أبي حنيفة" و"الشافعي"، والعقل والعلم والعشق والقلب والتصوف وصفة البشر، والحكمة والشهرة وصفة الأفلاك والربيع والحكم والأمثال^١.

ولعل أهم منظوماته بعد "الحديقة" معراجه "سير العباد إلى المعاد" والتي يصور فيها سفر النفس الإنسانية إلى السماوات، وبالرغم من قصر المنظومة وهي حوالى سبعائة وسبعين بيتاً، فإنها في غاية الصعوبة، وندين بفهمها إلى الشرح الذي كتبه عليها "فخر الدين الرازي" (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) تحت عنوان "رسالة في سير النفس العاقلة"^٢.

ومن المؤلفات الصوفية أيضاً كتاب "طبقات النساك" "لأبى سعيد الغزنوي" وهو من الكتب المفقودة^٣.

وأخيراً فإن نظرة متأنية في تراث هؤلاء الصوفية نجد أنهم قد اعتمدوا على القرآن الكريم والسنة والأدب العربي في بناء تراثهم الصوفي، وعلي هذا النهج سار "الهجويري"، فأول ما يستلفت نظرنا في الكتابه كثرة الآيات القرآنية التي وردت فيه، فقد كان يستشهد ببعض هذه الآيات لإثبات الآراء التي يذهب إليها، ويرجع إلى بعضها ليوضح معني أساء البعض فهمه، ويشرح بعضها ليطلع القارئ علي المغزى الذي تنطوى عليه، ويؤكد عن طريق عدد منها بعض الأسس والأصول الصوفية، وإلي جانب الآيات القرآنية استعمل الحديث الشريف وشرح كثيراً منها شرحاً وافياً، ونقل معظمها إلى اللغة الفارسية، وفي

^١. سعيد السيد الباجوري: الشعر التعليمي في الأدب الفارسي الإسلامي في عصر الغزنويين والسلاجقة، القاهرة، مكتبة عثمان، ١٩٨٧م، ص ٣٠. إسعاد عبد الهادي قنديل: فنون الشعر الفارسي، ص ٢٠٥. وسوف نتناول المنظومة بالتفصيل عند التعرض للغزل الصوفي في الفصل الثالث.

^٢. إبراهيم الدسوقي شتا: المرجع نفسه، ص ٢٨، ٢٩.

^٣. - إبراهيم الدسوقي شتا: دور المتصوفة الإيرانيين في ميدان التصوف الإسلامي وسياحتهم في مصر، بحث من كتاب جوانب من الصلات الثقافية بين مصر وإيران، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، (د.ت)، ص ٢٧٤.

الكتاب أيضًا الكثير من الأشعار والإشارات الأدبية الفارسية والعربية التي استعملها "الهجویری" في مواضعها الصحيحة مما ينبىء عن فهم عميق وذوق أدبی سليم مدعم بدراسة واعية للأدب واطلاع على الآثار الأدبية^١.

أما بالنسبة "لسنائی" فقد كان صوفيًا متمسكًا بالقرآن والسنة موفقًا بين الشريعة والحقيقة، إذ يقول في حديثه ما ترجمته "إنني جمعت في هذا الكتاب ما جاء في القرآن والسنة وأقوال المشايخ... وإن من يعرف قدر هذا الكتاب يعظمه كتعظيمه للقرآن لأنه ملئ بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية"، كما أنه خصص بابًا كاملاً في حديثه لذكر عظمة القرآن الكريم وسر إعجازه وهدايته وفضل تلاوته وسماعه هذا بالنسبة للقرآن الكريم، أما بالنسبة للحديث الشريف فنجد في كتابه يلجأ إلى الحديث الشريف ليدعم به أفكاره، كما كان يصدر بعض فصوله بالحديث، وكان يلجأ أحياناً إلى تفسير الأحاديث النبوية^٢.

أما بالنسبة للأدب العربي فإنه لم يكن يفرق بين الأدب العربي والفارسي، وقد هوجم بسبب ذلك، بل أطلق عليه "عربي الأدب" فدافع عن نفسه ووصل إلى رأى أن الأدب العربي والأدب الفارسي ينبعان من مشكاة واحدة هي مشكاة الإسلام، وقد أثبت هذا في حديثه تحت عنوان "في المساواة بين العربى والأعجمى" وانتقل من هذا العنوان إلى عنوان آخر هو "في بيان الأدب ليس بفارسی أو عربی"، وإنما هو أدب إسلامی والدليل على ذلك قوله:

- حينما يكون المرء كاملاً في الفضل، لا يضره أن كان عربياً أو أعجمياً
- لأن الروح تحيا بالعلم والعقل، ويستوى العربى والأعجمى في الروح^٣

^١. الهجویری: كشف المحجوب، ص ٥٦، ٥٧.

^٢. يوسف عبد الفتاح فرج: مصادر عربية وإسلامية للتصوف عند الفرس، مجلة الدراسات الشرقية، عدد

٢٣ يوليو ١٩٩٩م، ص ١١٣: ١٢٠.

^٣. المرجع السابق، ص ١٢٥، ١٢٦.

ومن أهم الصوفية الذين زاروا مدينة "غزة" "أبو عثمان أحمد بن نعيم النيسابوري الصوفي" (ت ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ م)، رحل في طلب الحديث سنة (٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م)، وقد روى صحيح البخاري عن محمد بن عمر بن شبوية وأخذ عنه الكثير، ورد "غزة" وتوفي بها^١.

"محمد بن الحسين الأزدي النيسابوري المشهور بأبي عمرو السلمي" (ت ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م) "من علماء الصوفية المجاهدين في نشر المذهب الشافعي، من أشهر مؤلفاته "حقائق التفسير" الذي ضمنه كثيرًا من مبادئ التصوف، وقد تصدى "ابن الجوزي" فيما بعد بالرد عليه في كتابه "تلبس إبليس"^٢. و"أبو عبد الله عيسى بن شعيب بن إبراهيم السجزي الصوفي" (٥١٢ هـ / ١١١٨ م)، ورد غزة وسمع بها "الخليل بن أبي يعلى"^٣.

الخلاصة أن التصوف قد تطور منذ بداية هذا العصر وحتى نهايته، وكان لهذا التطور الأثر الكبير في غلبة تيار التوفيق بين التصوف والشرعية الذي اعتنقه "سنائي الغزنوي"، ويعتبر المنطلق الحقيقي "لحديقة الحقيقة"، وكان هذا إيذانًا بانتهاء عهد تصوف الشيوخ وبداية عهد الصوفية العلميين وأصحاب المذاهب والكتب ذات المنهاج المحدد المستقيم، والذي كان دافعًا نحو انتشار التصوف، وظهور طبقة من المتصوفة رجع إليهم الفضل في تربية جيل من التلاميذ والمريدين صاروا أعلامًا في تاريخ الحياة الروحية في القرون التالية.

خامسًا: علم الكلام

كثرت تعريفات المتكلمين والباحثين لهذا العلم فمنها أنه علم يقتدر منه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه^٤. ومنها أنه العلم بالقواعد الشرعية

^١ ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٣، ص ٣٠٤.

^٢ سامية مصطفى محمد: دور سلاطين غزة في نشر الإسلام في الهند، ص ١٨٧.

^٣ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٣٩٠.

^٤ - أحمد محمود صبحي: في علم الكلام (دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين)، ج ١، الأسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٨ م، ص ٣. حاجي خليفة: كشف الظنون، ج ٢، ص ٥٠٣.

الإعتقادية المكتسبة من أدلتها اليقينية^١. ومنها أنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد علي المبتدعة المنحرفين في الإعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة^٢. ويتضح من تلك التعريفات أن علم الكلام علم من العلوم الشرعية المصطبغة بصبغة عقلية، تدور مسائله حول أصول العقائد الإسلامية وإثباتها والدفاع عنها ضد الآراء المخالفة لها^٣.

وسمى علم الكلام بهذا المسمى لأن أول خلاف وقع في كلام الله أهو مخلوق أم غير مخلوق فتكلم فيه الناس، فسمي هذا النوع من العلم الكلام^٤. أو لأن علماء المسلمين أباحوا لأنفسهم الكلام في موضعه علي حين أمسك السلف عن الخوض فيه، بالإضافة لكثرة ما يدور حوله من مجادلات كانت تثيرها في الغالب الفرق المختلفة، وقد ظهر هذا العلم في نهاية القرن الأول الهجري ومنتصف القرن الثاني الهجري^٥.

^١. سليمان بن صالح الغصن: موقف المتكلمين من الإستدلال بنصوص الكتاب والسنة، ج ١، السعودية، ١٩٩٦م، ص ١٩.

^٢. ابن خلدون: المقدمة، ج ٣، ص ٩٦٦. وله تسميات أخرى منها علم أصول الدين، وسماه "أبو حنيفة" "الفقه الأكبر" لأن الفقه في أصول الدين أفضل من الفقه في فروع الأحكام الشرعية، وقد رفع أبو حنيفة مكانة الفقه الأكبر على الفقه وحده لأن الأحكام الإعتقادية تعرف بالله تعالى وهو المشرع، كما أن الفقه الأكبر يثبت صحة الشريعة ووجوب الإلتزام بها، بالإضافة إلى أن أحكام علم الفقه فروع تبنى على صحة الفقه الأكبر، وسمي "بعلم النظر والإستدلال"، وأيضًا "بعلم التوحيد"، على أساس أن أهم مبحث فيه هو التوحيد. عبد اللطيف محمد العبد: مواقف كلامية، القاهرة، دار الهانئ للطباعة والنشر، ٢٠٠٧م، ص ١٠. أبو الوفا التفتازاني: علم الكلام وبعض مشكلاته، ص ٣. علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة، ص ١٢.

^٣. عامر النجار: علم الكلام عرض ونقد، القاهرة، دار التوفيق للطباعة، ١٩٨٦م، ص ١٢. علي عبد الفتاح المغربي: الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة، القاهرة، دار التوفيق للطباعة، ١٩٨٦م، ص ١٢.

^٤. السمعاني: الأنساب، ج ٥، ص ١٩٠. عبد المنعم الحنفي: موسوعة الفرق، ص ٨٥.

^٥. عصام الدين محمد علي: أفاق الحضارة الإسلامية والأوربية، الأسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٩٣م، ص ٣٧٥. عبد اللطيف محمد العبد: المرجع نفسه، ص ٤٠.

أما عن موضوع علم الكلام ومباحثه فهي العقائد الدينية كأركان الإيمان والسنة وما يتعلق بها، ولا سيما الإيمان بالله وصفاته ومسائل النبوة، وكذلك مسائل القدر والإيمان وما يتعلق بها^١. أما هدفه فهو حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش أهل البدع، فهو دواء للنفس المريضة "كما قال الغزالي^٢. أما الفارابي فقال عنه "هذا العلم يؤدي للدين خدمة جليلة لأنه يعطي القدرة لعالم الكلام علي نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي وضعها المشرع^٣. وإذا وضعنا في الاعتبار ما قاله الفخر الرازي في تفسيره من أن آيات الأحكام الواردة في القرآن هي أقل من ستمائة، وأن الباقي يخص التوحيد والنبوة والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين، أدركنا صدق ما قاله بعضهم من أن علم الكلام يعد رأس العلوم الشرعية^٤.

أما الشروط الواجب توافرها في المتكلم أن يكون:

١. معتقداً: يقوم اعتقاده في التسليم بما ورد في كتاب الله والسنة المحمدية تسليم المكلف من لدن الشرع، واعتباراً لهذا الجانب سمي علم الكلام "بعلم التوحيد"

١. حاجي خليفة: كشف الظنون، ج ٢، ص ٥٠٣. بطروشوفسكي: الإسلام في إيران، ترجمة السباعي محمد السباعي، ط ٢، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٩٣م، ص ١٢١.

٢. الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٣٣. إجماع العوام عن علم الكلام، القاهرة، ١٩٣٢م، ص ٢٠، ٢١.

٣. رفعت عبد العظيم محمود: نظرية العشق عند الصوفية الفرس، ص ٢٢.

٤. علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة، ص ١٨. (هناك من يرفض القول بأن علم الكلام وسيلة للدفاع عن السنة، ومنهم "أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي" (ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م) كان إماماً في الفقه واللغة، وألف رسالة في علم الكلام بعنوان "الرسالة الجامعة"، وهو في تلك الرسالة يهاجم الذين يميلون لعلم الكلام من أهل السنة، ويرى أنهم في الحقيقة لم يتخذوا هذا الموقف إلا طلباً للتميز عن الناس في الرتبة، وبحثاً عن الشهرة والجاه. هذا وقد ميز الفارابي بين جانبيين في علم الكلام: جانب إيجابي يهدف إلى إثبات ونصرة العقائد بالبراهين، وجانب سلبي يرمى إلى تزييف كل ما يخالفها أو يناقضها) حسين الصديق: المناظرات في الأدب العربي والإسلامي، ص ١٣٩. عبد اللطيف محمد العبد: مواقف كلامية، ص ١٢.

٢. ناظرًا: لما كان النظر هو طلب الفكر لشيء مخصوص بطرق مخصوصة يعتقد صاحبه أنها قادرة على الظفر به، فإن المتكلم يطلب تعقل أصول العقيدة وتعقيليها، وذلك بأن يسلك فيها سبل الاستدلال المنطقي، وهو ما أدى إلى تسميته "بعلم النظر والاستدلال"

٣. محاورًا: أى يتوجه المتكلم ويحاور غيره لإثبات دعاويه في العقائد أو بانتقاد دعاوى غيره، وكانت هذه الصفة الحوارية للمتكلم داعية إلى تسمية علم الكلام "بعلم المقالات الإسلامية"^١

نشأ علم الكلام في العصر الأموي، ففيه ظهرت أهم الفرق الكلامية وهم المعتزلة، وظهر الخلاف بين الفرق، واعتمد هذا النزاع على كل وسائل الدفاع من جدل يقوم على أدلة عقلية وعقلية، ثم تولدت مسائل إعتقادية كانت موضع تجادل وتنازع وافترق فيها المسلمون فرقًا، فظهر علم الكلام على أيدي هذه الفرق خصوصًا المعتزلة، فهم الواضعون الحقيقيون لعلم الكلام، وأصبح علم الكلام أداة أساسية لإثبات عقائد أهل السنة، وتداخل معه علوم أخرى من أهمها الفلسفة^٢، فالتكلم يعتمد في منهجه على

١. عبد الرحمن طه: في تقويم المنهجية المنطقية لعلم الكلام، بحث بالمؤتمر العالمى الرابع للفكر الإسلامى، بعنوان المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، ج ٢، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٢م، ص ٢٠٦.

٢. عامر النجار: علم الكلام، ص ٢٦. سليمان الغصن: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، ج ١، ص ٤٤، ٤٥. *الفلسفة تعنى بذل الجهد في سبيل المعرفة الخالصة أيًا كانت هذه المعرفة سواء طبيعية أو رياضية أو غير ذلك، وفي ضوء هذا المفهوم للفلسفة يمكن التفريق بينها وبين علم الكلام، فالفلسفة تبحث عن الحقيقة سواء كانت دينية أو غير دينية، أما علم الكلام فهو يبحث عن الحقيقة الدينية فقط * والفيلسوف يدرس موضوعه دراسة عقلية خالصة لا ترتبط بدين، وتبدأ عادة بالشك في الأشياء ثم يتدرج منه إلى اليقين، أما المتكلم فيبدأ بحثه بالإيمان بالعقيدة إيمانًا قلبيًا ثم يذهب كل مذهب للحصول على أدلة عقلية تركزى هذا الإيمان وتدفع شبه الخصم، فموقفه هو موقف المدافع عن العقائد وهذا يعنى أنه يؤمن بصحة القضايا التي يدافع عنها أولًا ثم يعمل عقله ثانية ويدعمها بالبراهين. * سليمان الغصن: المرجع نفسه والجزء، ص ٢٢. *على الشايبى: المرجع نفسه، ص ١٦.

النصوص الدينية أساسًا، وعلى الاستدلال العقلي كوسيلة، لهذا اشترط "الجاحظ" - في كتابه "الحیوان" - في المتكلم أن تكون معرفته بالفلسفة وبخصائص الأشياء قدر معرفته بالدين^١.

كانت نشأت علم الكلام نتيجة لأسباب متضامنة اقتضت وجوده على الصورة التي نراه عليها، فهناك عوامل منبعثة من داخل الجماعة الإسلامية ذاتها كالخلاف حول بعض النصوص الدينية، مما أدى إلى اختلاف وجهات النظر في تفسير العقائد، والخوض في مشكلات عقائدية. وهناك عوامل وافدة من خارج الجماعة الإسلامية، ومنها التقاء الإسلام بحضارات وديانات الأمم المفتوحة مما ترتب عليه صراع عقائدي بينها وبينه، ومنها أيضًا حركة الترجمة التي ترتب عليها انتقال الفلسفة اليونانية إلى المسلمين، ووجود نشاط فكري هائل امتد أثره فيما امتد إليه إلى علم الكلام^٢، فالمشتغلين بالعقائد قد وجدوا لهم من حركة الترجمة هذه زادًا حكميًا وفلسفيًا مكنهم من معالجة قضاياهم معالجة عقلية منطقية تتفق مع عصرهم من حيث شرح العقائد الإسلامية والرد على المبتدعة^٣.

وبالرغم من أهمية علم الكلام إلا إنه لم يكن معترف به كعلم من علوم الدين لدي علماء المسلمين طوال القرنين الثاني والثالث الهجريين، ولكن لم يحل ذلك دون نشأة العلم وتدوين موضوعاته وازدهاره، وقد استطاع "أبو الحسن الأشعري" (ت ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م)^٤

^١. على الشابي: المرجع نفسه والصفحة.

^٢. أبو الوفا التفتازاني: علم الكلام وبعض مشكلاته، ص ٧.

^٣. على الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة، ص ٣٣.

^٤. الأشعري: *هو "أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن بردة بن موسى الأشعري" ولد بالبصرة، *تلمذ على يد أحد شيوخ المعتزلة في البصرة، وهو "محمد بن عبد الوهاب الجبائي"، ودافع عن آراء هذا المذهب حتي الأربعين من عمره، وقد أدى تعمقه في مذهب الاعتزال إلى معرفته مواطن ضعفه نتيجة إصرافهم في التأويل العقلي، بعد هذا كرس حياته لمكافحة المعتزلة والفرق الضالة، وألف كتبًا كثيرة مؤثرة، وقد غدا مؤسسًا رئيسيًا لمذهب الكلام، أما بالنسبة لمنهجها فكان منهجًا وسطًا، فلا هو أهمل العقل، ولا هو عطل النص، وإنما راد للنص منزله

أن يمهد للإعتراف بعلم الكلام، وأن يجعل منه أحد علوم الدين^١. وفي القرن الرابع الهجري مر علم الكلام بأهم أدواره وهو دور تحرره من الفقه، فكانت كتب الكلام حتي ذلك الحين تتناول بعض الموضوعات الفقهية، ومرجع الفضل في حدوث هذا التحول إلى المعتزلة^٢.

اللائقة به فجعل للعقل وظيفته، وهي إدراك النص وفهمه،*** وكان لانتشار وغلبة المذهب الأشعري أثره في حدوث نهضة علمية للمسلمين.

* أبو الحسن الأشعري: الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق فوقية حسين محمود، القاهرة، دار المنصور، ١٩٧٧م، ص ٩. أبو المظفر الإسفرايني: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، ص ٥٢. جلال محمد عبد الحميد موسى: نشأة الأشعرية وتطورها، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م، ص ١٦٥، ١٦٨.

* حيدر بامات: مجالي الإسلام، ص ٢٠٢. عامر النجار: علم الكلام، ص ٢٧.

*** قاسم غني: تاريخ مختصر طب إسلامي، ياد كار سال اوسل، شارهء بنجم، طهران، ١٣٢٣ش، ص ١٤.

١- أحمد محمود صبحي: في علم الكلام، ج ١، ص ٤٠٧، ٤٠٨. حسين الصديق: المناظرات في الأدب العربي الإسلامي، ص ١٣٤. (ففي تلك الفترة برز اتجاه بين أهل السنة يقضي بتحريم النظر في علم الكلام، إذ يؤثر عن "ابن حنبل" أنه قال في مناظرة "ابن أبي داود له بحضور "المعتصم" "لست أنا صاحب كلام، وإنما مذهبي الحديث"، وينسب له قوله: "لا يفلح صاحب كلام أبداً، ولا يرى أحد نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل"، ثم قويت هذه الحملة ضد الكلام على يد "ابن عبد البر" (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م - ١٠٧١م)، ومع ذلك يبقى الاتجاه الغالب لدى أهل السنة هو استحسان الخوض في علم الكلام، خاصة بعد أن صاغ كل من الأشعري والماتريدي عقيدة أهل السنة صياغة عقلية أرضت نزوع الصفوة منهم، ومن ثم كثرت تأليفهم في الكلام في البيئات الإسلامية لعصور متعاقبة. على الشابي: المرجع نفسه، ص ١٥. حسين الصديق: المناظرات في الأدب العربي الإسلامي، ص ١٣٣).

٢- رشيد حميد الجميل: حركة الترجمة في المشرق الإسلامي، ص ٣٦٣. (نتيجة التخصص العلمي الدقيق الذي ظهر في الإسلام، انفصلت العلوم بعضها عن البعض الآخر، وبهذا التخصص سار كل علم في مساره علي قواعد ومناهج خاصة، فتميز عن غيره من العلوم بموضوعه ومنهجه وغايته. كما أن هناك فرق بين الفقيه والمتكلم في طبيعة دراسة المبادئ الدينية، فالفقيه يهتم بمعرفة ما يترتب عليها من نتائج

لم ينتشر مذهب الأشاعرة وهو المذهب الكلامي الجديد إلا انتشاراً بطيئاً، ففي المشرق كان الماتريدية^١ ينافسون الأشاعرة، وذلك علي الرغم مما بين الفرقتين من تشابه في أصل المذهب، وكان علي الأشاعرة أن يقاوموا هجمات الكرامية الذين تحزبوا علي الأشاعرة ورفعوا أمرهم إلي السلطان "محمود الغزنوي" مدعين أن الأشاعرة يعتقدون أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس نبياً اليوم وأن رسالته انقطعت بموته، ولم يكن هذا معتقداً للأشاعرة^٢.

ويظهر "الأشعري" بمذهبه الكلامي الجديد، يرد علي المعتزلة وينافح عن عقيدة أهل السنة فإحتدم الصراع بين الفريقين، وأصبح كل منهما مولعاً بالرد علي الفريق الآخر، فطغى الجدل علي المؤلفات، ولهذا السبب نرى "أبا الريحان البيروني" يرفض ما يقوله الخصوم عن بعضهم، ويعتبر كتب المقالات المؤلفة حتي عصره ليست ذات غناء لأن كل خصم مولع باقتناص نقاط الضعف في منطق خصمه وبالرد عليها^٣.

أما المتكلم فيبحث هذه المبادئ عن الأدلة التي تقضى بثبوتها والإقرار بها. أبو الوفا التفتازاني: المرجع نفسه، ص ٥. علي الشاذلي: المرجع نفسه، ص ١٨)

١. الماتريدية: نسبة إلى أبي منصور محمد بن محمد بن محمود السمرقندي الماتريدی (ت ٣٣٣هـ / ٩٤٤م) كان من كبار العلماء وله مصنفات كثيرة منها كتاب التوحيد وكتاب رد أوائل الأدلة للکعبی، وهو إمام المتكلمين ومصحح عقائد المسلمين. وعن المذهب الماتريدی فإنه انطلق من المأثور عن أبي حنيفة في العقائد ووقف موقفاً عقلياً مبسطاً، فقال بإثبات قضايا الشرع بالأدلة العقلية المنطقية وبالبراهين الدافعة، ولكنه لم يبالغ في قيمة العقل كما فعل المعتزلة، وإنما اتخذ لنفسه سبيلاً وسطاً، ذلك أنه يأخذ بحكم العقل فيما لا يخالف الشرع، فإذا خالف الشرع وجب الخضوع لحكم الشرع وحده. (الماتريدی: شرح الفقه الأكبر، حيدر آباد، مطبعة دائرة المعارف النظامية، ١٩٠٣م، ص ٥. تفسير الماتريدی السمي تأويلات أهل السنة، تحقيق إبراهيم عوضين والسيد عوضين، ج ١، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٩. عادل العوا: الكلام والفلسفة، دمشق، ١٩٦١م، ص ٤٩)

٢. آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص ٢٨٨، ٢٨٩.

٣. البيروني: تحقيق ما للهند، ص ١٤، ١٥.

ولما أشدت الجدل بين الأشاعرة والمعتزلة في القرن الخامس الهجري، لم تجد الخلافة العباسية سوى أن تتدخل لفض هذه المناظرات والخلافات، ففي عام (٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م) أصدر الخليفة العباسي "القادر بالله" (٣٨١: ٤٢٢ هـ / ٩٩١: ١٠٣١ م) كتباً ضد المعتزلة فأمرهم بترك الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والمقالات المخالفة للإسلام، وأنذرهم إن خالفوا أمره فسوف يتخذ ضدهم أشد العقوبات. وكان السلطان "محمود" أول من امتثل في "غزة" لأمر أمير المؤمنين واستن بسنته في قتل المخالفين ونفيهم وحبسهم، كما أمر بلعنهم علي المنابر^١.

وصار علماء وصوفية "غزة" على نهج سلاطينهم في محاربة المعتزلة، ومن أهم من تصدى منهم للمعتزلة "الهجویری"، فهو كصوفي من أهل السنة وقف موقفاً متشدداً من المعتزلة، وتصدى لأقوالهم وعارض آرائهم، ووصفهم في كتابه بالخروج على الدين، بل إن الأمر بلغ به إلى درجة أن كفرهم وأخرجهم من دائرة الموحدين^٢.

وبذلك يتضح لنا أن الصراع بين العقل والنقل كان الشغل الشاغل لمفكرى الإسلام منذ دخول العلوم اليونانية محيط الفكر الإسلامي، وظهور تأثيرها واضحاً في نشأة علوم جديدة مثل علم الكلام، وكانت وطأة الهجوم على كل ما سوى النص الحنفى للشريعة تشدد كلما أتى على الحكم حاكم متشدد في أمر الدين. وكان مظهر هذا التشدد رفض كل ما هو متصل بالعلوم العقلية كبداية لرفض كل ما لا يتصل بالنص الحنفى للشريعة. وكان السلطان "محمود" من هؤلاء، فقد أمر بإحراق مكتبة مدينة الرى، وخاصة ما كان فيها من كتب الفلسفة والمعتزلة^٣.

وفي أشعار "سنائي الغزنوي" نصادف أشعاراً يحث فيها عن الإعراض عن أباطيل اليونان والإكتفاء بالحديث والسنة: "تحرر من طوق العقلانية وتوجه ناحية ذوق الإيمان

١. البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ١٩٤. البيروني: الجواهر في معرفة الجواهر، ص ٣٣، ٣٤.

٢. الهجویری: كشف المحجوب، ص ١٩٦.

٣. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨، ص ٣٩: ٤٠. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٦، ص ٢٥٩.

فأى شئ تكون حكمة اليونان أمام ذوق الإيمان^١

وفي المقابل فهناك من أثنوا على علم الكلام، ومن هؤلاء "أحمشاذ بن عبد السلام الغزنوى" (ت ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م)، والذي قال في ذلك "يشنى عنان الكلام إلى علم الكلام، فهو العلم: ومن لم يتقن فيه فهو مقلد، وفي معرفة الله بعد متبلد، وما اتفقت الأئمة على اتفاق إيمانه بل حذر به بعضهم في عذاب الله ونيرانه"^٢.

أهم علماء علم الكلام في مدينة "غزة"

"أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأصفهاني" الفقيه المتكلم^٣، أقام أولاً في العراق يدرس على علمائها حتى وصل إلى أن درس بها مذهب الأشعرى على "أبى الحسن الباهلي"^٤، ثم ارتحل إلى الرى ثم إلى نيسابور، فاستوطنها معلماً للأدب والفلسفة، وكان ذو ثقافة موسوعية، فتنوعت علومه وتعددت فنونه، فهو إماماً في الفقه وعالمًا بالأصول، ومتبحراً في علم الكلام، وضليعاً في الوعظ وخبيراً بالنحو، وعارفاً بالأدب^٥، حدث عنه "أبو بكر البيهقي" و"أبو القاسم القشيري" و"أبو بكر بن خلف" وآخرون^٦، وحكى عن "ابن فورك" أنه قال: كان سبب اشتغالي بعلم الكلام أنى كنت بأصبهان اختلف إلى فقيه، فسمعت أن الحاجر يمين الله في الأرض، فسألت ذلك الفقيه عن معناه فلم يجب بجواب شافٍ، فأرشدت إلى فلان من المتكلمين فسألته، فأجاب بجواب شافٍ، فقلت: لا بد من معرفة هذا العلم، فاشتغلت به^٧.

^١ إبراهيم الدسوقي شتا: حديقة الحقيقة وشرعية الطريقة لسنائى الغزنوى، رسالة دكتوراة، آداب القاهرة، ص ١٢.

^٢ عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر، ج ٢، ص ١٤٦.

^٣ ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٢٧٨.

^٤ السبكي: طبقات الشافعية، ج ٤، ص ١٢٩. ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٤٠.

^٥ ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٣، ص ١٨٣: ١٨٨. الأسنوى: طبقات الشافعية، ج ٢، ص ١٢٦.

^٦ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٧، ص ٢١٦.

^٧ السبكي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.

استثمر "ابن فورك" علمه في إفادة من حوله، ونشر المعارف الإسلامية والوقوف في وجه المبتدعة والأدعياء مما عرضه للأذى ثم الإستشهاد. دعى إلى مدينة "غزة"، وجرت له بها مناظرة عظيمة، وذلك لأنه كان شديد الرد على زعيم الكرامية "أبى عبد الله بن كرام"، فتحزب الكرامية عليه، وأنها إلى السلطان "محمود" أن هذا الذى يؤلب علينا عندك أعظم منادعة وكفرًا، وذلك أنه يعتقد أن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس نبيًا اليوم، وأن رسالته انقطعت بموته، فأسأله عن ذلك، فاستدعاه السلطان، فلما حضر بين يديه سأله عن ذلك فكذب ذلك الكلام، ووضح للسلطان الأمر فأمر بإعزازة وإكرامه، فلما يئست الكرامية منه سلطوا عليه من سمه في الطريق سنة (٤٠٦هـ / ١٠١٥م)^١.

بلغت مؤلفاته في أصول الدين وأصول الفقه ومعانى القرآن الكريم قريبًا من المائة^٢، وأهم تلك المؤلفات:

- كتاب الحدود في الأصول، وهو تعريفات لأسس الفقه الحنفى
- النظامى في أصول الدين
- طبقات المتكلمين
- رسالة في علم التوحيد^٣
- مشكل الحديث وبيانه، وهو أهم كتبه، ويعالج تأويل الأحاديث المشبهة والمجسمة^٤، وقد عرف هذا الكتاب تحت عناوين مختلفة:

^١ المصدر السابق والجزء، ص ١٣١. ابن العماد: المصدر نفسه والجزء، ص ١٨٣. ابن كثير: طبقات الفقهاء الشافعية، ج ١، ص ٣٥٣.

^٢ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٩٧. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٧٣. الصفدى: الوافى بالوفيات، ج ٢، ص ٢٥٤.

^٣ بروكلمان: تاريخ الأدب العربى، القسم الثانى (٤.٣)، ص ٢٣١.

^٤ - ابن فورك: مشكل الحديث وبيانه، تحقيق موسى محمد على، القاهرة، دار الكتب الحديثية، (د.ت)، ص ٣٤.

- التكلم على الأحاديث المشهورة التي ظاهرها التشبيه وردها إلى المحكم
- بيان مشكل الحديث ورد على الملحدة والمعطلة والمبتدعة من الجهمية والجسمية والمعتزلة

- شرح مشكل الحديث
 - تأويل مشكل الحديث ورد على الملحدة
 - حل متشابهات الحديث
 - شرح غريب الحديث.
 - مشكل الآثار أو الحديث
 - إملاء في الإيضاح والكشف عن وجوه الحديث^١
- ومن علماء الكلام أيضًا "أبو حفص عمر بن أبي بكر بن محمد الغزنوي"، كان إمامًا في علم الكلام والفقه^٢.

ومن أهم أتباع المذهب الأشعري من الغزنويين "أبو المؤيد عيسى بن عبد الله بن القاسم الغزنوي الأشعري"، كان واعظًا كاتبًا ورد بغداد ووعظ بها، وكان من المتعصبين للمذهب الأشعري، رحل من بغداد قاصدا بلده فمات في الطريق بإسفرايين سنة (٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م)^٣.

الخلاصة أن علماء الكلام استطاعوا الوقوف في وجه الحملات التي شنّها أعداء الإسلام للتشكيك فيه وهدمه، وكان خطر هؤلاء على العامة لا على العلماء، فالعلماء

^١. بروكلمان: المرجع نفسه والجزء والصفحة.

^٢. القرشي: الجواهر المضيئة، ج ٢، ص ٦٤٢.

^٣. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩، ص ١٣١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٧٧.

يعرفون الحق من الباطل ويميزون الطيب من الخبيث أما العامة فلا، لذلك كانت ثمرة جهود علماء الكلام أن وضعوا سدًا منيعًا في وجه أولئك المهدمين فحفظوا عقائد العوام.

الفرق والمذاهب المخالفة لمذهب أهل السنة

بلغت المذاهب والفرق الإسلامية أقصى نشاطها زمن الدول المستقلة في المشرق، وانقسم الناس إلى طوائف وأحزاب حسب مذاهبهم، وزاد في هذا الانقسام أن كل مذهب من المذاهب انقسم بدوره إلى فرق فرعية عديدة، ثم اشتد الجدل والنزاع بين الفرق المختلفة، ونستطيع أن نجد صدى لهذه الأحداث في شعر "سنائي الغزنوي"، فقد تكرر في شعره ألفاظًا شاعت في مجالس الجدل مثل "المبتدع":

هو إمام الدين فقيه الأمة من هيئته صار ذم المبتدع جامدًا في عظامه^١

وبالرغم مما أحدثته هذه الفرق من اضطرابات في المجتمع إلا أنها كانت ذات أثر كبير في إيجاد نهضة علمية واسعة، فقد ساعد الجدل والاختلاف في الآراء على حرية الفكر والازدهار الثقافي، إذ نشطت كل فرقة للدفاع عن نفسها بسلح العلم، وظهرت كثير من المؤلفات التي ألفها المعتزلة والإسماعيلية والصوفية وغيرهم من علماء الفرق المختلفة، بالإضافة إلى تدريب الناس على تقبل الآراء والنظريات الجديدة وبصدر رحب.

كذلك كان لهذا الصراع أثره على الفكر التربوي باعتباره الأسلوب الذي تتبناه الجماعات في تنشئة أفرادها، وقد تنوع هذا الأسلوب بين جماعات اتخذت المنهج العقلي، وجماعات اعتمدت على المنهج الذوقي والتربية الروحية، وجماعات مالت إلى المنهج النقلي، وسعت جماعات أخرى إلى التوسط بين كل هذه الاتجاهات وأخذت من كل منهج بطرف^٢.

^١. إبراهيم الدسوقي شتا: حديقة الحقيقة وشرعية الطريقة لسنائي الغزنوي، ص ٢١، ٢٢.

^٢. أحمد عرفات القاضي: الفكر التربوي عند المتكلمين المسلمين، ص ٢١.

كان المجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري مقسماً من الناحية الدينية إلى كتلتين أهل السنة والشيعة، فالخلفاء العباسيون في "بغداد" ومن تبعهم من الملوك والحكام سنيون يتعصبون للسنة، والفاطميون في مصر والشام والمغرب، وبنو بويه في العراق شيعة يتعصبون للشيعة، وكان الخلاف قائماً علي أشده بين الكتلتين.

وفي القرن الخامس الهجري كثرت الفرق الإسلامية واشتد النزاع بينها ولم يعد الخلاف مقصوراً على أهل السنة والشيعة، بل تعدى ذلك إلى أهل السنة فيما بينهم، فظهر النزاع بين مذاهب أهل السنة المختلفة كالشافعية والحنفية، وتنازع الفقهاء بعضهم مع البعض، وبلغت الخلافات المذهبية بين الشيعة وأهل السنة والأشعرية والمعتزلة والإسماعيلية، وأيضاً النزاع والجدل بين المذاهب السنية إلى حد أن مجادلات العلماء ومناظراتهم كانت تنتهى أحياناً بالعراك والقتل والنهب^١.

من الجدير بالذكر أن الحكومات لم تكن تتدخل في تلك النزاعات قبيل الدولة الغزنوية، ولكن الوضع ما لبث أن تغير في القرن الخامس الهجري، وأخذ الملوك والحكام يتدخلون بالتدريج في الصراع^٢، فكان السلطان "محمود" من المتعصبين للسنة^٣. وكان أول الحكام الذين اتبعوا سياسة القضاء على المذاهب الدينية الضعيفة مثل الشيعة وفرقها أمثال القرامطة^٤، وفي المقابل هناك بعض المذاهب القوية كالمذهب الحنفي الذي كان يدين له الناس بكل الولاء^١.

^١. الهجویری: كشف المحجوب، ص ٢٣.

^٢. ذبیح الله صفا: تاریخ ادبیات در ایران، جلد اول، ص ٢٠٢.

^٣. Arberry: Classical Persian Literature, p2١.

^٤. *القرامطة فرقة دينية سياسية، تنسب إلى رجل يدعى "حمدان بن الأشعث قرمط"، ولقب بقرمط لقرمطة في خطه، وينسب القرامطة إلى الباطنية لأنهم كانوا يتلقبون بلقب جديد، ويتسمون باسم جديد ولكن المعنى واحد، فهم يسمون في حلب ومصر بالإسماعيلية، وفي قم وكاشان وغزنة وبغداد بالقرامطة. ** وقد اتخذ حمدان قرمط من واسط مركزاً لدعايته، وسماها دار الهجرة ومن مبادئهم الاجتماعية والاقتصادية الشركة في الأموال، فكان المريدون منهم يقيمون ولائم محبة، يتناولون فيها طعام أهل الجنة على حسب

والواقع أن الغزنويين اتبعوا تلك السياسة من مساندة الأحناف والتخلص مما عداهم من مذاهب غير رسمية كالتشيع والإعتزال، وذلك لعدة عوامل منها قلق السلطان "محمود" من ازدياد حركة الشيعة، وكذلك رغبته في التخلص من نفوذ المذاهب الدينية الأخرى التي كان لها مدارس فقهية، وخاصة مدارس الشافعية بقيادة بعض العلماء الذين بدأوا ينافسون المدارس الحنفية في المناظرة والنقاش والجدل. وهناك عامل آخر زاد من الحملات التي شنّها السلطان "محمود" ضد معتنقي المذاهب المخالفة، وهذا العامل هو دعم الخليفة "القادر بالله" ببغداد للسلطان محمود في تلك الحملات، فبينما أعلن "محمود" نفسه مدافعاً عن المذهب السني بقصد التقرب من الخليفة العباسي الذي كان يرسل إليه الألقاب والخلع والهدايا، ويدعمه بالشرعية السياسية والدينية، كان الخليفة يرى في "محمود" المتوثب دائماً للغزو رأس حربة لا تكلفه شيئاً في مواجهة القواعد العسكرية والفكرية للإعتزال والتشيع في البلاد البعيدة عنه، والتي تغذى فكرياً ومادياً تجمعاتها الموجودة في مقر الخلافة^٢.

وقد اعترف السلطان "محمود" نفسه بذلك فقال أنه أدخل أصبعه من أجل العباسيين في كل جهات العالم يبحث عن القرامطة ويشنق كل من يجده وتثبت عليه القرمطة^٣. لذلك شن السلطان "محمود" حرباً لا هوادة فيها علي المعتزلة والقرامطة وأعمل فيهم

رأيهم، وقد وضع "عبدان". وهو صهر "حمدان" مؤسس الفرقة. كتاباً شرح فيه طريق المريد إلى بلاغات الفرقة السبعة، ذلك لأنهم يقدسون العدد سبعة، وتنتهي البلاغات بالمريد إلى أنه لم يدرك جمال العقيدة الكلي، وبذلك يقع تحت سيطرة رئيس الفرقة، ومن عقائدهم أن كل ما أوحى به سابقاً من تنزيل وشرائع دينية، إنما يمثل حجاباً لمعنى باطني، لا يدرك إلا بالتأويل. *نظام الملك: سياست نامه، ترجمة السيد محمد العزاوي، القاهرة، دار الرائد العربي، ١٩٧٥ م، ص ٢٨٥. *التوانسي: أبو الريحان البيروني، ص ٣١.

١. حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

٢. البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر، ص ٣٣، ٣٤.

٣. البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ١٩٤.

القتل والصلب وأمر بلعنهم علي المنابر، وشردهم من ديارهم، وجعل كثيرًا من كتب الحكمة والفلسفة والنجوم ورسائل المعتزلة طعمة للنيران^١. وهذا ما سيأتي تفصيله.

ففي سنة (٣٩٦هـ / ١٠٠٥م) عندما كان مشغولاً في أعماله العسكرية بالهند، قاتل الإسماعيلية الذين كانوا في المولتان، والسبب في ذلك أن واليها "أبا الفتوح داود بن نصر بن محمد القرامطي" حاول الاستقلال بالمولتان، فتوجه إليه وفتح المدينة وألزم أهلها عشرين ألف درهم، واندفع يؤدب كل من تحدّثه نفسه بالميل إلى هذا المذهب^٢.

ثم قام السلطان "محمود" خلال فترة حكمه بعمليات تطهير واسعة النطاق شملت إدارات الدولة، حيث طرد منها كل من يشك بعقائده، وقد أرسل رسالة للخليفة العباسي يعلمه بذلك^٣.

وقد عاش الشيعة في جو من الإضطهاد طوال الفترة التي حكم خلالها السلطان "محمود" والسلطان "مسعود"، وقد تركز جهد هذين الحاكمين على قمع الشيعة الإسماعيلية^٤.

ولما وجد الفاطميون في مصر ما يلاقه أنصارهم من الشيعة في بلاد المشرق على يد السلطان "محمود" عملوا على استمالته إليهم، وذلك بأنهم أرسلوا داعياً من دعائهم يدعى "عبد الله بن علي العلوي التاهرتي"^٥، أرسله الخليفة "الحاكم بأمر الله

^١. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٧، ص ٢٨٧. عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٨٤، ١٨٥.

^٢. العتبي: تاريخ اليميني، ج ٢، ص ١٨٠. ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٣٤. أظهر المباركوري: رجال السند والهند إلى القرن السابع، ص ١٠٠، ١١١.

^٣. نظام الملك: سياست نامه، ص ٩٧.

^٤. رسول جعفریان: الشيعة في إيران دراسة تاريخية من البداية حتى القرن التاسع الهجري، ترجمة على هاشم الأسدي، ١٤٢٠ق/١٣٧٨ش، ص ٣٠٤. ناصر خسرو: جامع الحكمتين، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٧م، ص ٢٧.

^٥. نسبة إلى "تاهرت" إحدى مدن المغرب، وهي من المناطق التي خضعت للسلطة الإسماعيلية منذ أواخر القرن الثالث الهجري. رسول جعفریان: المرجع نفسه، ص ٣١٦.

الفاطمي" (٣٨٦: ٤١١ هـ / ٩٩٦: ١٠٢٠ م) إلى السلطان "محمود" بغزنة سنة (٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) يدعوهُ إلى المذهب الإسماعيلي، وكان معه عدد من تصانيف الشيعة، ففوض السلطان "محمود" أمره ومناظرته إلى علماء "نيسابور"، فاجتمع في محفل أئمة الفرق، وانبرى الشيخ "أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي النيسابوري" لمناظرته، فألزمه الحجة بحيث لم يستطع الجواب، فأثبت بذلك فساد عقيدته، ثم رفع أمره إلى الخليفة "القادر بالله" فأمر بقتله، فقتل بنواحي "بست" ^١.

وفي سنة (٤١١ هـ / ١٠٢٠ م) حاول الخليفة "الظاهر الفاطمي" (٤١١: ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥: ١٠٢٠ م) استماله السلطان "محمود" للدعوة له والخطبة باسمه، فكتبه وأرسل إليه الخلع، فلم يلتفت السلطان "محمود" لكتابه، وبعث به وبالخلع للخليفة العباسي "القادر بالله" الذي قام بجمع الأشراف والأعيان، وأخرج الخلع وأضرمت النيران وألقيت فيها الخلع، وعندما بلغ ذلك الخليفة الفاطمي "الظاهر" كف عن مكاتبة السلطان "محمود" ^٢.

وفي سنة (٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م) توجه السلطان "محمود" إلى مدينة "الري" التي كانت مركزاً للمذاهب المناوئة لمذهب أهل السنة والتي من أهمها مذاهب غلاة الشيعة والمعتزلة وغيرهم ^٣، ونفي "محمود" كثير من المعتزلة، وأحرق ما وجده من كتب الفلسفة والإعتزال، ونقل ما دون ذلك إلى "غزنة"، وأرسل إلى الخليفة "القادر بالله" رسالة طويلة بيّن فيها أسباب فتحه "الري"، ويؤكد أن هذا دفاعاً عن مذهب أهل السنة والجماعة ^٤. وقد كان بالري من الباطنية رستم بن علي الديلمي والذي أباح الدماء وسب الصحابة والخلفاء الراشدين، فقبض عليه السلطان محمود هو وأتباعه وقتل منهم جماعة وصلب

^١. السمعاني: الأنساب، ج ١، ص ٤٤٤. الكرديزي: زين الأخبار، ص ٢٩١.

^٢. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨، ص ٢١، ٢٢.

^٣. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٢٣٦.

^٤. ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ١٧١. النويري: نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٦٦. بداوني: منتخب التواريخ، ج ١، ص ١٨.

الباقى فى شوارع المدينة، وأخذ ما كان قد احتجزه رستم بن على من جواهر وأموال وثياب^١.

وفى ذلك يقول الشاعر "فرخى" فى شعر له ما ترجمته:

أخذت ملك الرى من القرامطة، وأصبحت راغباً الآن فى أداء مناسك الحج

وكل من عمل منهم بهواه، فإن جزاءه الصلب على أعواد المشانق^٢.

لم يكن الاضطهاد مقتصرًا فقط على الشيعة، ولكنه امتد إلى اضطهاد الفرق السنية المخالفة لمذهب الدولة الغزنوية، فقد اضطهد السلطان "محمود الغزنوى" الأشاعرة وسبهم على المنابر، واستمر ذلك حتى أمر الوزير السلجوقى "نظام الملك" بالكف عن لعن الأشاعرة^٣.

وبالإضافة إلى ذلك كانت تهمة التشيع إذا إلقيت على أحد العلماء تكون سببًا لاضطهاده، فميل "الفردوسى"^٤ للتشيع وركونه إلى المعتزلة فى أصول العقائد كان السبب الرئيسى لاضطهاد السلطان "محمود" له بعد أن كان من المقربين إليه، وفى عصر طغى فيه التعصب المذهبى، كان يحلو "لمحمود" أن يتعقب الشيعة ويضطهدهم فعزف عن "الفردوسى"^٥.

^١. الصفدى: الوافى بالوافيات، ج ١٤، ص ٨١.

^٢. رسول جعفریان: الشيعة فى إيران، ص ١٩٩.

^٣. ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج ٥، ص ٥٤، ٥٥.

^٤. الفردوسى: أبوالقاسم منصور بن حسن الطوسى (ت ٤١١هـ/ ١٠٢٠م) صاحب الشاهنامه، ويعتبر الفردوسى أعظم شاعر ملحمى عرفه المسلمون، وتعتبر "شاهنامه" معلمًا من معالم الأدب الفارسى والإسلامى على السواء. الفردوسى: الشاهنامه، ترجمة عبد الوهاب عزام، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٢م، ص ٥٤.

^٥. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٢٣٨. على الشابى: الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى، ص ١٧٧.

كان "الفردوسي" يخفي تشييعه بسبب الأوضاع السائدة في عصره، ولكن المضامين الموجودة في شعره تدل على ميله للتشيع، ومن تلك الأشعار ما ترجمته .:

من كان في قلبه بغض عليّ، فهو ابن زنا.

وخصم عليّ غير طاهر المولد، حتي لو كان من أعضاء الإيوان والبلات.

ومما قاله بشأن كتابه "الشاهنامه": "إن الفردوسي الطوسي" الطاهر المولد ينشد هذه الملحمة، وينضد هذه الجواهر الكثيرة باسم النبي صلى الله عليه وسلم وعليّ رضي الله عنه لا باسم "محمود".^١ وبسبب المضامين الموجودة في شعر "الفردوسي" لقي الشاعر الاضطهاد والتشريد بسبب مدحه لآل البيت، وإن كان هذا المدح لا يختلف عن مدح أهل السنة لهم.^٢ كذلك قام السلطان "محمود" بقتل أستاذ "البيروني" "عبد الصمد الحكيم" عندما استولى على "خوارزم" بتهمة انتماؤه للشيعة.^٣

يتضح مما سبق أن السلطان "محمود" شن حملة قوية على الشيعة في كافة المناطق التابعة لحكمه أو حتى غير التابعة، وفي ذلك يقول أحد المؤرخين "إذا سمع أن شخصاً في أقصى المغرب سيئ الدين أو المذهب، فإنه يبذل أقصى جهده للقبض عليه، وأعدم في عهده ما يدنو علي خمسين ألفاً من هؤلاء الزنادقة".^٤ وبسبب ذلك فإن الإسماعيلية وسائر الفرق الشيعية قد ابتهجت واغتبطت بوفاة السلطان "محمود"، ولذلك قال "فرخي" في رثائه: آه، فالآن قد ابتهجت القرامطة وآمنوا على أرواحهم من وطأة التشريد والإعدام".^٥

استمر هذا الوضع طوال فترة الحكم الغزنوي، فقد تعرض الكثير من العلماء والشعراء للاتهام بتهمة التشيع، ومنهم الشاعر الصوفي "سنائي الغزنوي"، والذي ذكر في

^١. رسول جعفریان: المرجع نفسه والصفحة.

^٢. على الشابی: المرجع نفسه والصفحة.

^٣. عارف تامر: تاريخ الإسماعيلية. ٤. الدولة النزارية، ج ٣، لندن، رياض الريس، ١٩٩١م، ص ١١١.

^٤. رسول جعفریان: المرجع نفسه، ٣٠٠.

^٥. المرجع السابق، ص ٣١٨.

خطاب أرسله إلي السلطان "بهرامشاه" (٥٤٧: ٥٥٥ هـ / ١١٦٠: ١١٥٢ م) يشكو فيه أن علماء "غزة" اتهموه بالتشيع، وتم اللقاء في السجن بسبب ذمة "لعاوية بن أبي سفيان"، فأرسل السلطان "بهرامشاه" إلي علماء "بغداد"، فأفتوا بأن "سنائي" غير مخطئ، حيث كان "سنائي" يحاول التوفيق بين كافة الآراء، لكي ينجو من آفة التعصب التي كان يهاجم بها، فقد عظم كل من وجده ذا يد عليا في الشريعة سواء كان محسوباً من أهل السنة أو من الشيعة، لقد دافع عن الخلفاء ضد المتعصبين من أهل السنة، وعظم أهل البيت وأئمتهم كمسلم وكشاعر للشرع، كما كان يطلق علي نفسه^١.

وفي المقابل وعلي الرغم من دفاع الغزنويين الشديد عن المذهب السني، فقد عاش في بلاطهم الكرامية، وهي من الطوائف الدينية التي اكتسبت الشهرة في العالم الإسلامي، وخاصةً في مدينة "غزة"، فكان كل من السلطانين "سبكتكين" وابنه "محمود" يعتقدان في مذهبهم^٢، فقد اتخذ "محمود" من أتباع الفرقة الكرامية قوة محافظة ورأس حربه ضد المعتزلة والإسماعيلية^٣.

أوكل السلطان "محمود" إلي هؤلاء أمر النظر في عقائد سائر المذاهب والحكم علي الصحيح أو الفاسد منها، وقاد عمليات النظر في عقائد الناس هذه شيخ من شيوخ الكرامية ويدعي "أبا بكر محمد بن إسحاق بن محمشاد"، والذي منحه السلطان "محمود" رئاسة مدينة "نيسابور"، وأطلق يده في التخلص من بعض الفرق التي تميل إلي الفلسفة والجدل مثل المعتزلة، فكان أتباعه يشنون الغارات ويدهمون البيوت والمساجد والمكتبات فيقتلون ويصادرون الأموال، ومن امتنع عن مجاراتهم أو إعطائهم ما يطلبون رموه بالإلحاد والزندقة وفساد العقيدة، وإذا استعصي عليهم أمر جماعة أو طائفة كتبوا بذلك

^١. إبراهيم الدسوقي شتا: حديقة الحقيقة وشرعية الطريقة لسنائي الغزنوي، ص ٢٤.

^٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٧، ص ٤٨٤: ٤٨٦.

Bosworth: The Rise of Karamiyah, p٦.

^٣. البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر، ص ٣٣.

للسلطان "محمود" يستعينون به^١. فقد كتبوا له تقريرًا وأرسلوه إليه في "غزة" يخبروه فيه بأمر الصوفي "أبي سعيد بن أبي الخير" (ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م)^٢ ومريديه الذين كان عددهم آنذاك مائة وعشرين فردًا، إضافة إلى جماهير غفيرة من عامة الناس^٣.

كما فعلوا نفس الشيء مع الحافظ "محمد بن الحسن بن فورك"، فقد أتهمه الكرامية بالقرمطة، وجعلوه يحضر أمام محكمة حضرها السلطان، وقام بمناظرته "أبو عبد الله محمد بن الهيصم الكرامي" شيخ الكرامية وأعرفهم بالمناظرة وعلم الكلام، فهو رأس طائفتهم^٤، وهنا أعلن "ابن فورك" مذهبه الذي ينتمي إليه وهو المذهب الشافعي، وبرائته مما ينسب إليه من الافتراءات التي لا تمت له بصلة، فأطلق السلطان "محمود" سراحه، إلا إن الكراميين لم يتركوه حيًا، بل دسوا له السم فمات سنة (٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م)^٥.

ويتضح من إشارات المؤرخين أن المذهب الكرامي اكتسب شعبية كبيرة، فعلى حد تعبير "العتبي" مؤرخ الدولة الغزنوية فإن سوقهم قد راجت، حتى قال الشاعر "البستي":

الفقه فقه أبي حنيفة وحده والدين دين محمد بن كرام
إن الذين أراهم لم يؤمنوا بمحمد بن كرام غير كرام^٦

^١. العتبي: تاريخ اليميني، ج ٢، ص ٣١١، ٣١٢.

^٢. هو "أبو سعيد فضل الله بن أبي الخير الميهني" من أعظم الشخصيات الصوفية التي عاشت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، والنصف الأول من القرن الخامس الهجري، ولد في مدينة "ميهنة" بإقليم خراسان، ويعزى إليه أنه أول من أسس نظام الخانقاوات في الإسلام، كما أنه الرائد الأول لشعراء الصوفية الإيرانيين. محمد بن المنور: أسرار التوحيد، ص ٣١: ٥٠.

^٣. محمد بن المنور: المصدر نفسه، ص ٩٠.

^٤. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٢٨، ص ٢٣٢. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٥، ص ١١٣: ١١٢.

^٥. ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٣، ص ١٨١: ١٨٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٧٣.

^٦. العتبي: تاريخ اليميني، ج ٢، ص ٣١٠.

ولكن لم تستمر سوق الكرامية رائجة لفترة طويلة، فقد كانت نهايتهم علي يد القاضي "أبي العلاء صاعد"^١، فقد شرح للسلطان "محمود" ما يزعمه الكراميون في حق الله سبحانه وتعالى^٢، وقد اقتنع السلطان بما قاله القاضي عن هؤلاء، فأمر بأن، يحضر "أبو بكر محمد الكرامي" لمحاكمته في "غزة"، وكلف القاضي "أبا محمد عبد الله الناصحي" (ت ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م)^٣ بإستجوابه حول هذه الادعاءات التي يدعيها في مذهبه، وعندما امتثل "أبو بكر محمد" أنكر تمسكه بهذه المعتقدات متهمًا القاضي "أبي العلاء" بالإعتزال، ولكن القاضي كشف حقيقتهم، فغضب السلطان "محمود" عليهم وأصدر أمرًا بإلقاء بعضهم في السجون ومصادرة أموالهم، وتطهير المدارس من عقائدهم^٤.

وكان من الطبيعي أن تثير آراء "ابن كرام" وأتباعه الفرق الإسلامية الأخرى، لما فيها من مخالفة ظاهرة لما أوجبه الإسلام من إعتقاد التنزيه، لذلك نجد المعتزلة يهبون لمناظرة الكرامية، وحدث بينهم مناكرات وفتن كثيرة متعددة^٥.

ومن علماء الشيعة في "غزة" "أبو الحسين علي بن الحسين بن عبد الله الغزنوي الواعظ"، لقب بالبرهان، سمع "بغزة" من "حمزة بن الحسين القايني" "صحيح

١- أبو العلاء صاعد: أصله من "الموصل"، كان عالمًا باللغة والأدب، وهو صاحب كتاب "الفصوص" (ت ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م) العتبي: المصدر نفسه والجزء، ص ٣١٣.

٢- كانت طائفة الكرامية تقول بالتجسيم، فأعطوا الله سبحانه وتعالى الصفات الجسمانية كاليد والوجه، اعتمادًا على ورود هذه الألفاظ في القرآن الكريم، وذكروا أن الله يحاسب الناس يوم القيامة وهو في صورة "آدم"، وذلك من الآراء المخالفة لمذهب أهل السنة. (الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، ص ١٠٩. الهجویری: كشف المحجوب، ص ٤٧٤)

٣- أبو محمد عبد الله بن الحسين الناصحي: قاضي القضاة وإمام المسلمين وشيخ الحنفية في عصره، ولي القضاء للسلطان "محمود الغزنوي" "بيخارى"، وكانت له مجالس نظر وتدریس وفتوى. العتبي: المصدر نفسه والجزء، ص ٣١٥.

٤. العتبي: المصدر نفسه والجزء، ص ٣١٤، ٣١٥.

٥. أبو الوفا التفتازاني: علم الكلام وبعض مشكلاته، ص ١٠٩.

البخارى" بروايته عن العيار، وسمع "ببغداد" "أبا سعد بن الطيوري" و"ابن الحسين"، وقد بنت له زوجة الخليفة "المستظهر بالله" (٤٨٧: ٥١٢ هـ / ١٠٩٤: ١١١٨ م) رباطاً بباب الأزج . محلة ببغداد . وأوقفت عليه الأوقاف، وصار له شهرة واسعة لميل الأعاجم إليه، كان يميل للتشيع، ويدل على ذلك محبة الأعاجم له، كما أنه لم يعظم بيت الخلافة كما ينبغي، فلما اشتهر عنه ذلك أخذت منه قرية كانت موقوفة عليه وحبس ثم أفرج عنه ومنع من الوعظ، وهو والد المسند "أبي الفتح أحمد بن علي الغزنوي" راوى "الترمذى"، توفي سنة (٥٥١ هـ / ١١٥٦ م)، ومن شعره:

يخسدي قومي علي صنعتي لأنني في صنعتي فارس

سهرت في ليلي واستنعسوا هل يستوي الساهر والناعس؟!^١

أما بالنسبة لموقف "البيروني" من ذلك الصراع المذهبي، فقد حضر ذلك الصراع بين الإسلام وخصومه، وكان المعتزلة هم فرسان الحلبة في الدفاع عن الإسلام، فقد كانوا يرتابون في كل التيارات السرية والعلوم البرهانية والفلسفية التي بدأت تتسرب من الديانات الأخرى كالمناوية والبوذية، وما يزعمونه من اتحاد الله بالإنسان، وما يمارسونه من طقوس، وقد وقف المعتزلة في وجه كل ذلك من ديانات وفلسفات مختلفة، مما أثار حفيظة "البيروني" فوقف ضدهم مدافعاً عن أصحاب الديانات الأخرى، لأنه يؤمن بوجود الآخرين وحقهم في الحياة.^٢

أما بالنسبة للمذهب الذي كان يعتنقه "البيروني" فالمصادر تشير إلى أنه كان شيعي النشأة بحكم انتسابه إلى عائلة شيعية، وأنه لم يعبأ بذلك فتحول إلى مذهب أهل السنة، ويرى البعض أن تفضيله أحياناً لآراء أهل السنة لا يقوم دليلاً على انصرافه عن التشيع، إذا صح أنه كان شيعي النشأة فمما لا شك فيه أنه حين كبر . خضوعاً لصفاء عقله وتحرر

^١. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ٥٨: ٦١. ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٥٩. ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٤١١.

^٢. محمد عبد الحميد الحمد: حياة البيروني، ص ١٧١.

آرائه ورفضه للتعصب والتقليد أعاد النظر في المذهب الذى ينبغى أن يقف عنده، وقد أكسبته دراساته للديانات المختلفة مناعة في هذا الشأن، فتمسك بحقائق الإسلام العميقة ورفض التأويل الهازل للقرآن، مما دفعه للهجوم على المفسرين والفقهاء الذين يجانبهم الصواب فيما يذهبون إليه ^١.

وفي كتابه "الآثار الباقية" نراه ينتقد الشيعة في مواطن مختلفة، ففي حديثه عن الإفطار لرؤية الهلال أو إكمال ثلاثين يوماً، يورد روايات عنهم يرفضها ويحرج مسلكهم في استمالة الضالين ^٢. و"هذه الأخبار كلها في كتاب الشيعة مقصورة علي الصوم، والعجب من سادتنا عترة الرسول عليه وعليهم السلام أنهم صاروا يصغون إلي ذلك ويقبلونه تأليفاً لقلوب جمهور المتوسمين بتشييعهم ولا يقتفون أثر جدهم أمير المؤمنين في إعراضه عن استمالة الضالين المعاندين بقوله ما كنت متخذاً المضلين عضداً" ^٣. كذلك ينكر علوم الباطنية بما فيها من زيف وتمويه ينسبه الباطنيون للنبي صلى الله عليه وسلم، ويزعمون أنه من أسرار النبوة التي خص بها النبي صلى الله عليه وسلم وآله.

وينبغى أن نلاحظ أن انتقاده للشيعة لا يمكن أن ينبى عن رفضه لمذهبهم وعزوفه عنه، فمن مميزات تفكيره رفض التعصب والنقد الموضوعى إذا لزم الأمر، أيًا كانت طبيعة الموضوع، والتصدى للكشف عن الجوانب السلبية والإيجابية فيما يتناول دون أن يندفع إلي الإنساق أو التحامل، وهو بمنهج هذا يرفض قداسة الموضوعات الإنسانية التي يطرقها بحجة أدلتها وسبق قائلها، فهي كلها قابلة للدفع أو التأكيد طبقاً لما يمليه المنطق ^٤.

^١ - على الشابى: الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى، ص ٢٩٢. بروكلمان: تاريخ الأدب العربى، ج ٥، ص ١٩٥.

^٢ - على الشابى: المرجع نفسه والصفحة.

^٣ - البيرونى: الآثار الباقية، ص ٦٧.

^٤ - على الشابى: المرجع نفسه والصفحة.

وعلينا بعد ذلك أن نلتمس دليلاً يحسم أمر مذهبه، فالذي يمكن قوله أنه إضافة إلى روحه الديني الرافض للتعصب، وقف موقفاً وسطاً بين المذهب الشيعي والسني، فقد أشار في كتابه "الجماهر" إلى أنه اعتاد أن يلبس خاتماً رصع فيه القسمين المختلفين من الحجر، يحترم أحد القسمين أهل السنة والآخر يحترمه الشيعة، وهو بهذا يحدد موقفه منها لأنه لا يرضيه الاختلاف بينهما، فأصبح الشيعي السني في وقت واحد، وبذلك تخلص ببساطة من التحيز لأحدهما، ولا نذكر أن أحد من العلماء سواه وقف هذا الموقف ليمثل العقل الحر والارتفاع عن التعصب الذي طالما أدى إلى الجمود والانحراف^١.

^١. على الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٢٩٣.